أَرْبَعُونَ لَوْحَةً
فِي الْبَحْثِ عَنْ بَطَلٍ

حقوق الطبع محفوظة

اسم الكتـــاب: أربعون لوحة في البحث عن بطل.

تـأليـــــــف: د. إسلام محمد فتح الله القـطـــــع: 14*20

تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح سنـة النشـر: 2024

النـاشـــــر: دار الزيات للنشر والتوزيع

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 28156 / 2024

الترقيم الدولي (ISBN): 978 - 977 - 844 - 560 - 2

دار الزيات للنشر والتوزيع

المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ ٤٩٣٥١

ت: ٠١٠٦٦٧٣٦٧٦٥ - ٠١٠١٥٧٦٦٠١٤ / shahnda71@gmail.com

9 789778 445602

أَرْبَعُونَ لَوْحَةً
فِي الْبَحْثِ عَنْ بَطَلٍ

رواية

د. إسلام محمد فتح الله

إهداء

وفاء للحقيقة والإنسان..

حديث الرّحّالة

تجسدت لي عالمًا يسلبني عقلي، يستنفد طاقتي ، كلما شاهدته وجدتني فيه؛ فلا أعلم هل غصت فيه أم انجذبت إليه؟ تأسرني الألوان والظلال والأبعاد والمعاني، فجعلت أتنقل بين لوحة وأخرى، أنظر فلا حراك لبصري حتى يأخذ بزمام عقلي ، فأسمع وأشم وألمس حياتها ، فأتممتُ سبع لوحات ، فعشرًا، ثم ثلاثًا وعشرين على الترتيب، ولما آذن الرحيل إلى حيث أستقبل من المدائن في رحلتي، لم يكن لي من شاغل إلا أن أشير على من ألقاه أن يمر على تلك الوجهة ؛ ليُعاين ما رأيت ، ويُعايش ما عايشت ، على الرغم من قناعتي بتنوع الاهتمامات ، وتفاوت العقول ، واختلاف المشارب ، وتضاد المصالح.

ومن عجبٍ أن الناس بقدر ما صدّوا عنها أول ما أشرت عليهم بها ، بقدر ما أقبلوا عليها زمرًا بعد ذلك ، حتى ترامت الأخبار بأنها لم تعد في محلها ، فكثرت الأسئلة : هل أفسدها عاتٍ ؟ أم اشتراها ثري؟ أم طوتها قبضة الزمن؟ فجاش في خاطري - وقد عاينتها وعايشتها - أن أحكيها للناس ، ترويها الرواة ، ويسري طيفها مع الأيام في الحياة .

عن مجلس الترجمان

كنت ممن فهم عن الرحالة أهمية ما رآه ، وما حكاه، ولم أكن أعرف لغته، لكنه اتفق أن قابلته في خانٍ ، وقد اجتمع حوله خلقٌ كثير ، يستمعون مقاله ، فكلما انتهى من جلسة ، تمايز أهل كل لسان إلى من فهم منهم ليترجم لهم ، فأصغي تمام الإصغاء لترجمان أهل لساني ، ثم أعود إلى مجلس الرحالة، أسمع لغة غير لغتي ، وكنت أراقب الحال والإشارة ، ثم أجلس مجلس الترجمان أسمع، وأفهم ، وأحفظ ، وأتخيل.

وكان يحصّل من ذلك بعض الهدايا من الطعام والشراب بقدر ما يقتات به إنسان، دون أن يستشرف له، بل يُعطي منه من رأى إليه حاجة، ولم يكن متهمًا في عقل، أو خلق، أو مهنة.

وكنت قد وعيتُ ما رواه الترجمان بشغفٍ ، وأخذت عهدًا على نفسي أن أبذل لغيري ما وصلني ، وفاءً للفن والمعرفة ؛ فلا الرحالة ولا الترجمان أولى بهما مني ، فمكثتُ الليالي الطوال أرتب ما حفظته وأجدّ في صوغه؛ ليستطيع قارؤه أن يرى ما شاهد الرحالة ، أو يسمع ما قاله الترجمان ، على أنني لست كاتبًا

ممن يُشار إليهم ، ولا هي حرفتي ، لكن حب المعرفة غايتي ، وأخوة الإنسان دليلي.

أما الرحالة فإن معايشته اللوحات: فنّها، ومعناها، ودلّ الناس على محلها، وإقبال الناس على سرديته على الرغم من تنوع ألسنتهم، وحضور بعض من شاهد اللوحات جلساته ، وحوارهم معه دون استدراك على ما يقول ، كل ذلك يشير إلى صدقه ، فإن اختلف مختلف بعد ذلك ، فناموس الحياة الاختلاف ، غير أن المختلف حين يؤيد رأيه بدليل ، يكون له من الفضل ما يُبرئه عن الأهواء، والمصالح الضيقة.

وقد يُثار سؤال عن مبدع اللوحات " هل صنعها جنود (هولاكو) ، وهم يُعملون سيوفهم في الأمم التي غزوها ؛ ليبعثوا الرهبة في نفوس من لم يحاربوهم قبل الغزو، أم لتخليد إبادتهم للإنسان والحياة ؟ أم رسمتها آلام المغلوبين يشاركون غيرهم آلامهم أملًا في إنصاف ؟ أم هي خطوط وألوان الإنسان بعيدًا عن تحيز الزمان، والمكان، وأهله ، ومشاربه ".

وكما وجدت الرحالة يحتفي بالفن ومعناه، وكما عُني به الترجمان، فقد جمعتُ أوراقي؛ ليضمهم كتابٌ ، وجال في خاطري أن أُسميه (صور من حياة إنسان) فاقترح عليّ أحد

الأصحاب أن يكون عنوانه (أربعون لوحة في بطولة هولاكو) إذ رأى شخصيته حاضرة في الخنزير البريّ ، تتواتر في اللوحات معبرة عما عدّه شراسة وشجاعة، كما أن اتخاذ الخنزير رمزًا، وشعارًا ، قد تعدد على اختلاف الزمان، والمكان ، ورأى كذلك في القرود معه جنودًا تُميزهم خفة الحركة ؛ لتكون دليله إلى النصر؛ لكني لستُ أدري هل قرّب العنوان المعنى إلى القارئ؟ أم ابتعد به؟

دوري في الكتاب

في أحد الشوارع المختصة ببيع الكتب القديمة، وبينما يتسلم أحد الباعة مجموعة كبيرة من الكتب ، خطفت عناوينها وأسماء مؤلفيها عيني، لمحت بقايا غلاف بدا مهترئًا، انسقت إليه أستخرجه، قرأت العنوان : (أربعون لوحة في بطولة هولاكو) .

تصفحتُ، أدركت أن معي مخطوطة، هل وجدت كنزًا ؟ أم شيئًا لن يلتفت إليه غيري؟ فأجمعت أمري على الشراء، فغالى البائع في السعر على الرغم من أن المؤلف مجهول، فاستنفدت فيه كل ما معي ، غير أني استسمحته في ثمن أجرة سيارة رجوعي للبيت.

قرأت المخطوطة ، وأعجبني ما نهض به الرحالة، والترجمان، والمؤلف، فسعيتُ أن أُتمم عملهم في نشر هذه القيمة ، ولم أتصرف إلا في موضعين:

الأول: العنوان ، إذ كان كما أشرت سالفًا (أربعون لوحة في بطولة هولاكو) فوجدت أن مثل هذا العنوان قد يقلل من استمتاع القارئ باللوحات والسردية إذا علم مقدمًا موضوعها،

كذلك فإن (هولاكو) من الشخصيات المختلف عليها، وإن رآه كثيرون بطلًا كما رأوا في (جنكيز خان) تأثيرًا إيجابيًا، إلا أن أسئلة هامة قد يطرحها العقل عن معنى البطولة في قتل الأطفال والنساء، وإذا سلمنا ببطولة: فهل كانت لدولته، أم لمجده الذاتي؟ وهل كان يحقق في حروبه الإنسان ، أم الشيطان؟

يعترف التاريخ لهولاكو بالقوة، لكنها سبب حصله قبله وبعده كثرة من الأباطرة والقادة، فهل جعلتهم القوة أبطالًا ؟ أمّن حقق في نفسه الإنسان منتصرًا للحياة والحقيقة أقرب للبطولة ؟ ولذا فقد غيرت عنوان الكتاب إلى (أربعون لوحة في البحث عن بطل) محتفظًا بالعدد الذي يشير إلى مجموع عدد اللوحات، وإلى حضور فكرة البطولة ، إلا أنني تركت القارئ ليبحث بنفسه ويتساءل ، يفرض فرضيته ، يلاحظ ، يفسر، يراكم الدلالات ، وصولًا إلى بطل تيسره معطيات النص ، ومنطق عقله ، ومدى حضور الإنسان في ذاته .

الثاني : الفقرة التي طرح فيها المؤلف سؤالًا عن مبدع اللوحات ، إذ اشتملت على فراغات ، ولم تتضح فيها كلمات سطرين كاملين ، وعلى الرغم من طول بحث في كل المظان ، إلا أنني لم أقع علي نسخة أخرى من المخطوطة أراجع فيها ذلك الموضع ، كما لم يتيسر معرفة اسم المؤلف لأراجع كتاباته عن

هذه الفكرة حال كان قد فعل ، فاجتهدت في صوغ الفقرة بما اتضح فيها ، وقد وضعتها بين علامتي تنصيص ، ولعلي بذلك أكون قد خطوت خطوة لاستكمال مسيرة غيري وفاء للحياة والإنسان .

١ - الملعون

تتمدد جثة آدمي بدمه الذي شكَّل بقعةً ظاهرة بجوار رأسه، وسط حقل ذابل ، احتلت الصفرة حيزًا من فضائه بما يوهم بشكل شيطان ، يحده جدول ماء نمير، ومن بعده مرج ملأته مواش راتعة.

يستدبر الجثة شخص ، نميز شبهًا كبيرًا بين لباسيهما ؛ من حيث الأجزاء القليلة التي تكسو الجسد، وطبيعة الغزل، ولونه.

يبدو قوي البنيان كخنزير بري ، وملامح وجه تتسق مع ما توحي به طبيعته ، حافي القدمين ، تلطخت يده اليمنى الظاهرة من ناحية المشاهد في اللوحة بالدم، وقد أخذت قطرة طريقها من سبابته إلى الأرض فوق شق مثل بوز تمساح، كما نلاحظ على الأرض، في المسافة بينه وبين الجثة، وجهًا يُطابق الجانب المنظور منه الجانب المنظور من وجه القاتل كأنه منه سقط.

يقول الرواة:

إن ما أثار دهشتهم أن الشخص قوي البنيان المتلطخة يداه بالدم ، لم يركض نحو المقتول لإنقاذه ، فإن كان هو القاتل ؛ فلمَ لم يركض هربًا ؟ فهل كانا في فضاء خال من البشر؟ أم إن القاتل لا يخاف أحدًا ؟ أم تمكن الشر منه إلى حد يجعله لا يأبه بالدم !؟

ومن ثم ، فقد روى آخرون أن همهمة ظلت تتردد من بعض النظارة : "ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها ؛ لتقبل دم أخيك من يدك ، متى عملت الأرض لا تعود تُعطيك قوتها، تائهًا ، وهاربًا تكون في الأرض."

وقد زعم راوٍ أن الأرض التي فتحت فاها للدم ، وعلى إحدى روابيها ، أسعدها صعود (لامك) وقد رأى ما ظن أنه وحش بري ، فأجهز عليه ، فاكتشف أنه قتل جده (قايين).

وادعى راوٍ أن بذرة (قايين) قائمة في نسله ، وأن ابنًا له يحمل ملامحه سيقتل بدل آدمي واحد بعدد شعره بشرًا، وأنه لن يخاف أحدًا حتى لو اتهمه قاض ، بل سيضربون له بأيديهم باطن إحداهما على باطن الأخرى - احتفاء - في (قدس الإنسان) ، يشاركونه لعنة الأرض التي فتحت فاها لتقبل الدم ، وليقطر الدم من أيديهم ومن بين شفاههم ، وليدنسوا ذلك القدس البشري بزورهم وبدنانيرهم التي سكبوها على ذلك القاتل ، وبحرابهم التي أمدوه بها ، كما دنسه (ذو قرنين).

٢- عين الكذب

تكتمل ملامح الفتوة لعشرة شبان ، يلفهم لباس رعاة البادية ، يقف أحدهم ممسكًا بثوب ملون ، تدلى منه كمّاه، يناوله لآخر قد جلس القرفصاء ، وهو ما أبرز عضلاته القوية ، وشعر جسمه الخفيف ، ورأسه الوتدي ، يغمس طرف الثوب بدوره في دم تيس مذبوح يفور من أوداجه.

وآخران قد جثا كلّ منهما على ركبتيه، يمسكان بأطراف التيس المنحور، أما الباقون فقد أشار أحدهم إلى الثوب مخاطبًا جالس القرفصاء ، والآخرون يتابعون.

في الخلفية قطيع من التيوس، والماشية ، ترعى في الحشائش المتناثرة ، فيما يظهر عند مدّ البصر قافلة تأخذ طريقها بعيدًا عنهم ، وكأن فيها ما يلمع، أو يشع ، أو يعكس شعاع الشمس.

يقول الرواة:

بينما استغرق أحد النظارة في المشهد، فجعل يردد مع أصداء صوت : " هو ذا صاحب الأحلام قادم ، فالآن هلمّ نقتله ، ونطرحه في إحدى الآبار، ونقول : وحش رديء أكله ؛ فنرى ماذا تكون أحلامه ؟ " فسمع الصوت من بجواره ، فشرعوا يتأملون عيون الشبان ، فمن قائل : وماذا لعيون الثعالب إلا الكذب ! وقائل : أحداق تتنفس الخداع !

وزعم راوٍ أن أحد النظارة أقسم أن من حسد، وشرع في قتل بريء ، وباع طفلًا وقبض ثمنه ، وكذب على أبٍ في ابنه ، وصاغ حياة من خداع ، لا برء له ، ثم تساءل : وهل ستنطق عيونهم بغير ذلك ، ولو بعد قرون ؟!

٣- طرد الصيارفة:

نطالع شابًا " يفيض وجهه حنانًا، وهيبة ، شعره كلون الخمر منسرح غير مصقول ، لكنه في جانب الأذن أجعد لمّاع، جبينه صلت ناعم ، ليس في وجهه شية ، غير أنه مشرب بنضرة متورد، وليس في فمه ، ولا أنفه ما يُعابُ ، عيناه زرقاوان ، طويل ، له يدان جميلتان مستقيمتان .." .

يدفع بيده موائد عليها نقد ، قد أوقع بعضها ، فيما ينظر إليه أصحابها نظرة امتزج فيها الحنق بالمهابة ، وهم يتعثرون في عباءاتهم، يجمعون ما انتثر من مال ؛ حيث يبدو بعضهم راكعين ، وآخرون جاثون على ركبهم.

فيما نشاهد بجوارهم عريشًا ، يجمع فيها شخص حمامًا في قفص ، بينما تدفع امرأة معه الناس عن عريشهم بيدٍ، وقد حملت قفصًا به حمام على رأسها ، تخطو بعيدًا وقد أمسكته بيدها الأخرى ، في الخلف منهم سور بسيط يتخلله بعض الأعمدة الحجرية.

جمهرة من الناس - عن يسار اللوحة - يتابعون الحدث ، تتباين أزياؤهم بين أنثى، وذكر، فقير، وغني، مسن، وشاب، بينما اختار اليمين ، وفي طرفه بجوار تينة يابسة ، اثنان تبدوعليهما أُبّهة الثياب ، وتضج بشرة وجوههم، وانتفاخ بطونهم بترف الحياة ، يتغامزون بعيون ثعلبية ، وملء وجوههم الغيظ.

يقول الرواة:

إن النظارة ظلوا يتساءلون عن تلك القوة التي مكنت ذلك الشاب من تطهير المكان من عبدة المال دون رياسة، أو سلاح، وإنهم سمعوا صدى يتردد في الأنحاء "مكتوب أن بيتي بيتٌ للصلاة يُدعى، أما أنتم فقد جعلتموه مغارة لصوص."

وزعم بعض الرواة أن صاحبي العيون الثعلبية قد أضمرا شرًا لذلك الشاب ، قد علمه الناس كلهم ، وأن غيظ وجوههم منه باقٍ أبد الآبدين ، وهو ما جعل لونهم الأبيض يستحيل ورديًا، وجعل الأنف ينتفخ ؛ فيصير أسطوانيًا ، وأنهم باتوا لصوص أرض ، ومال، ودماء ، بعد أن كانوا لصوص مال.

٤- قاطع لحم البشر:

تزدان قاعة محكمة : سقوفها، جدرانها، نوافذها، أعمدتها، بنقوش وزخارف تحكي فنون عمارة راقية ، لكنها ليست محط نظر أحد من الحاضرين ، إذ قد حبسوا أنفاسهم جميعًا منصرفين إلى ما يجري في القاعة ، وقد تجلى ذلك على نظراتهم ، وقسمات وجوههم ، وتموضع سواعدهم.

في صدر القاعة تتجلى مهابة القضاء على من يتصدرون المشهد، وتزيدهم أزياؤهم، ولون شعور رؤوسهم مهابةً إضافة إلى أعمارهم الكبيرة، يتابعون مع النظارة الجالسين شخصًا له عيون ثعلبية، ولحية طويلة، وشعر مجدول، وعباءة بالية صفراء ، قد تشكل جسمه داخلها ورأسه قطع نقد، وقد علّق على صدره قلادة على شكل نجمة تتعدى خمسة رؤوس ، يحمل يمينه سيفًا قد أشهره على بعد خطوات من شخصٍ سمح الملامح، تشي ملابسه بأبّهة التجار، قد علق صليبًا في عنقه، يبدو متراجعًا خطوة إلى الوراء ؛ بينما يقيده حارسان عن يمين ويسار، تقطر ملامحهما قسوة ، وبجوارهما يقف حارس ثالث خلف ميزان منصوب ، وفي إحدى كفتيه سنجة (الرطل) فبدت أثقل من الأخرى الفارغة، فيما يتألق في زي عضو دفاع عن المتهم شاب فاقت وسامته وسامة الذكور، يشيح بيديه ناحية القضاة ، في صراخ يحكيه وجهه.

يقول الرواة:

لم تنم (البندقية) ليلة محاكمة تاجرها (أنطونيو) تعاطفًا معه، وفرحًا بنجاته من شر (شايلوك) الذي كاد أن يقطع من لحمه رطلًا مقابل تأخره عن سداد القرض.

فيما ذهب أحد الرواة إلى أن (شايلوك) ليس شريرًا، بل إنه حاول أن يتجنب توبيخ (أنطونيو) له ، واتهامه له بالاستغلال، وأن قطع جزء من جسم (أنطونيو) كان أمرًا قد تعاقدوا عليه.

وطرح غيره تساؤلًا عن سبب فرار ابنة (شايلوك) : (جسيكا) من بيته ؟!

وأضاف : وهل أبدع أحد شرًا مثل إنسان يأخذ من لحم بشر مقابل مال ؟!

فيما شبه راوٍ آخر سيف (شايلوك) ومن ماثله ، بسيف (شاول) الذي قال فيه (صموئيل) : " كما أثكل سيفك النساء، كذلك تثكلك أمك بين النساء."

٥- البجعة السوداء:

على صفحة الماء الرقراقة تسبح (بجعة سوداء اللون) سامقة العنق ، منقارها نحيف طويل ، امتلأ كيسها تحته، تشق طريقها مع حركة الشمس، ضد تيار الماء الذي جلّاه اتجاه مجموع الطيور السابحة معه ، فصاغت خلفها نسيجًا متموجًا جديرًا بالتأمل، سيما مع انعكاس أشعة الشمس عليه.

بجسمها القصير، ووقفتها المنتصبة، ومنقارها الخطافي المعقوف، ومخالبها الحادة ، وقفت بومة على إحدى الأشجار المنثورة في اللوحة التي شكَّل أحد أغصانها نتوءًا ؛ فبدا في ظلال الشجرة كرأس حلوف.

تظهر استدارة رأس البومة إحدى فتحتي أذنيها الكبيرتين، وهي باسطة جناحيها للانقضاض ، فاستحال خيالها عقابًا ضخمًا برأسٍ كبير، ومنقارٍ معقوف، وجناحين هائلين.

فيما شكلت سماء اللوحة ثلاثة أسراب من الطيور: أولها كونته سبعة، وثانيها عشرة ، وثالثها تكوّن من ثلاثة وعشرين طائرًا، وكذلك انتشرت نتف السحاب ، شكل أكبرها رأس فرس أبيض.

يقول الرواة:

إن رأسي الحلوف والفرس - كلتيهما - لا وجود لهما في اللوحة ، وإنما يُمثلان حمولة نفسية لدى بعض النظارة انعكست على اللوحة.

وأجمع الرواة على اندهاش النظارة كلهم حين فوجئوا ببجعة سوداء، فلم يتوقع أحد منهم مشاهدة هذا الطائر بهذا اللون ، وقد ردد بعضهم : يا لصعوبة التنبؤ بالأحداث المفاجئة ! وزادوا أن الملهمة (أورانيا) لم يكن لها من علم بذلك على الرغم من نظرها في الأفلاك والنجوم.

وتساءل الرواة عن البومة ، أو ما تلبّس بها ، وأسراب الطيور : هل تسبب وجود البومة في مغادرة الطيور أعشاشها ذعرًا؟ أم إنهم خُدعوا بضخامة خيالها ، فظنوها عقابًا هائلًا ؟ أم إن البومة قد احتلت عشهم ، وأجبرتهم على هجرة موطنهم كما تساءلوا عن ظهور البومة في غير الليل ! وهل بإمكانها أن تتعايش مع الطيور؟!

وكذلك تساءل الرواة عن سر العدد في أسراب الطيور!

٦- الصيحة:

بغلٌ يجر عربة يقودها راجلًا شخصٌ عريض بدين ، أشبه ما يكون بحلوف في بنيته وملامحه ، تجلس عليها بضع سيدات يصفقن ، مدت إحداهن شفتيها فبدت مطربتهن، وقد اتخذت مكانها يمين العروس ملتصقة بها .

تبتسمُ العروس في ثوبها الأبيض الموشّى بالخرز الأزرق في خطين مستقيمين ، وخطوط أخرى بينهما منكسرة ، قد كشف عن بعض مفاتنها ، فيما يركض وراء العربة بعض الغلمان الحفاة ، وقد استطاع قليل منهم أن يتعلقوا بأطرافها.

ينحني الطريق بالعربة صاعدًا من يمين اللوحة إلى يسارها ، نحو حي بُنيت بيوته على سفح جبل ، وقد خرجت بعض النساء إلى النوافذ ، يُتابعن العروس في طريقها ، وقد استدارت شفاههن ، وبسطن أكفهن أعلاها؛ ليجمعن صوت الزغاريد.

كما اشرأبت كثرة من الرؤوس أسفل يسار اللوحة تتابع الحدث، وقد ظللها السواد، فيما يقابلهم أسفل يمين اللوحة، عند منحنى الطريق مسنٌ مهيب رغم أسماله البالية ، قد كسا الشيب وتجاعيد الآلام ملامح وجهه النحيل، وقد قوَّس كفيه حول فمه رافعًا رأسه كأنه يصيح ، أو ينادي.

يقول الرواة:

حين مرت عربة عروس (حي جبل) "و اضطرم الجو بالزغاريد والتهاني والهمسات الفاحشة " لم يتمالك عم (شكرون) نفسه ، فصاح بصوتٍ كالرعد: " اضرب ، اضرب " .

وذهب راوٍ أن العجب أصاب كل من سمع صيحة الرجل الهرم ، من أين واتته قوة تلك الصيحة ؟ وهو الذي "كان يصمتُ طويلًا ؛ حتى حين يتطلب الحال الكلام".

وزعم راوٍ آخر أنها هلوسة ؛ فقد سُمع (عرفة) يتساءل : "هل يحلم الرجل ، أو يهلوس؟ " معتبرًا أن ما فعله نتاج شيخوخته.

لكن غيرهم زعموا أنها من آثار عصر(قاسم) ، مما دفع آخرين بالرد عليه متسائلين : هل كان لها من أثر أو صدى !؟

٧- سبت الساحرات:

كرة بلورية كبيرة ، عن يمينها أربع ساحرات، وعن يسارها ثلاث ساحرات ، نُطالع فيها معهن سياجًا أخضر من شجر الموز، يتوسطه فجوة يمر خلالها أقرب ما يكون لذئبٍ، أو مهر، وبينما تتجلى علامات الأنوثة النضرة على ما بدا من أجساد ووجوه الفتيات ، فإن ما ظهر من جوانب وجوههن قد أظهرهن مذعورات ، فاغرات الأفواه.

يملأ فضاء الساحة أمامهن جمع غفير من ذكور وإناث بملامح حيوانية ، يلعبون ويمرحون ، فيما قد طار أعلى اللوحة ماعز أسود عظيم برأس حلوف له قرنان أزرقان، وقد امتطى مبتهجًا سبع عصي ، مبتعدًا عن الجمع والساحرات.

يقول الرواة:

إن (سبت الساحرات) قد جمعهن إلى (الماعز العظيم) يخدمنه ؛ فانتزع عصيهن يمتطيها وحده ؛ ليعلو بالقدر الذي لا يستطيع أحد نيله.

وزاد راوٍ أنه قد رهن نظرهن بالكرة البلورية ، فمن تلتفت عنها استباحها، وابتلعها جوفه أربعة أسابيع، وأنهن صرخن بأعلى أصواتهن مما شاهدنه في الكرة البلورية ، إلا أن الشيطان لم يلتفت إليهن، ولم يعرهن اهتمامًا، وظل يعلو.

وزعم راوٍ أنه سرق كل عصا مسحورة ؛ كي لا يستطيع أحد أن يشاركه في شيء.

وأشار غيره إلى مدى ذعر الفتيات من سبت قادم ، يُماثل (سبت الساحرات) السبعة المشؤوم ، ما دام (الماعز العظيم) جردهن من الفعل ، وسرق العصي كلها ؛ فلا يرى إلا نفسه ، ولا يسمع غيرها.

٨- ولا تعف عنهم:

خيمة عظيمة يعلو بها عن الأرض سلم من ثلاث درجات ، يقفُ أعلاه - عن يمين الخيمة - شخص يلبس ملابس فاخرة ، وقد مد يديه أمامه تمسكان قرطاسًا غطى وجهه.

فيما يقف يسار الخيمة على الدرجة الثانية من السلم ، قائد عظيم البنية ، عريض ، لا يظهر ترسه ودرعه منه شيئًا سوى نظراته الحادة ، وقد مد قدمه اليسرى يخطو بها إلى الأمام مشهرًا سيفه.

يملأ فضاء اللوحة يمينًا ويسارًا سوادٌ عظيم من الجنود ، في صفوف منتظمة ، في لحظة إشهار سيوفهم ، إذ لا تبدو جميعًا في وضع إشهارها المثالي ، فهم بين ساحبٍ للسيف من غمده ، ومن أسرع يرفعه ، ومن أشهره إشهارًا ؛ ليماثل فعل القائد الواقف بجوار الخيمة.

في الناحية المقابلة للخيمة ، ومن يمين اللوحة إلى يسارها ، نشاهد: حمارًا، وجملًا، وغنمًا، وبقرًا ، ورضيعًا، وطفلًا، وامرأة ، ورجلًا ، من جهة ظهورهم ، مقيدين في السلاسل ، مستقبلين الخيمة ، وقد جعلت الشمس من ظلالهم عماليق ظللت سيف القائد المشهر، فيما تفترش بعض الحشائش والزهور أرجاء المكان.

يقول الرواة:

إن (الخاقان الأكبر) - أو قالوا كلمة يشبه صوتها هذه الكلمة - قرأ على القائد الوصية أثناء خروجه بالجند آمرًا بعدم العفو، وقتل الرجل والمرأة والطفل ..

وزعم راوٍ أن ظمأ هؤلاء الجنود للقتل ، تجلى في سرعة إشهارهم للسيف بعد إشهار القائد له ، وغمغمة تردد : اقتل رجلًا وامرأة ..

وشكك راوٍ في أن يكون صاحب الوصية هو(الخاقان) ، أو من يمثله ، فعلى الرغم من أن هذه الوحشية قد عرفت عن (هولاكو) وجيشه ، إلا أن (ياسق جنكيز خان) حفظ دم الحيوان البري ، فحرم الصيد من (آذار) إلى (تشرين أول).

وتساءل راوٍ آخر عن السبب الذي جمع إلى الرجل، والمرأة، والطفل، والرضيع، البقرَ، والغنم، والجمل، والحمار.

٩- البساط المقدس :

بساط يطير في الهواء، لكنه لا يحمل أفرادًا، بل مدينة أو بلدًا ، يزهو مركزها بهاءً وإشراقًا، يبدو حجم بناياتها وسكانها صغيرًا جدًا، نستطيع أن نميز بين ناسها العاديين، وآخرين مُذَهّبين.

نلاحظ في الأفق قوسًا من ألوان أربعة : الأبيض، والأخضر، والأحمر، والأسود؛ يقطعه وحش ذو مئة رأس، يقف خلف البساط، وقد مد إليه كفيه يلمسه ببنانه التي يعبرعليها المذهبون كجسر إلى البساط.

وفيما تبدو أصابع الوحش رؤوس حيات ، نطالع على معصميه الموشومين نجومًا كثيرة على المعصم الأول ، وأربع خطوط مستقيمة متقاطعة في المركز في توزيع متساوٍ على المعصم الثاني.

وعلى أطراف البساط الأخرى يدفع المذهّبون بعصيهم السحرية الآخرين ؛ ليسقطوهم من أماكنهم على البساط ، وهكذا نطالع أعدادًا من المدفوعين في أوضاع متعددة من لحظة دفعهم إلى خارج البساط ، حتى ارتطامهم بالأرض، إضافة إلى أعداد أخرى من المدفوعين يدلّون على مسار البساط ، وآخرين وطأتهم أقدام الوحش.

يقول الرواة:

بينما كان المذهّبون يعبرون على كفّي أخطر الوحوش (تايفوس) إلى بساط الريحِ ، سُمع يدندن : " بساط مقدس بلا شعبٍ ذهبي ، لشعب ذهبي بلا بساطٍ مقدس" .

وزعم راوٍ أن ربة الأرض (جايا) حين سمعت دندنة الوحش تبرأت منه، وأسرّت إلى ابنها (بونتوس) كلمة ؛ فماج منذرًا بإعصار، وإلى ابنتها (ثميس) فنهضت من فورها، تنصب الميزان وهي تقول : أعطى غير المالك، غير المستحق.

وأورد أحد الرواة أنه قرأ استنكارًا في حكايا (الليالي الطوال وليلة) ، عن خطف المذهّبين للبساط من الأمير(حسين) ، وأضاف متعجبًا : ألم يسمع الأمير ما قيل له عند فوزه به ؟ " حذارِ يا سيدي أن تتهاون بهذا البساط ، فإنه ثمرة جهود جبارة ، وقد أصبح الآن ملك يديك ، فاجعل المحافظة عليه نصب عينيك " .

١٠- الزجاج المكسور، والعظم المكسور:

ضحيتان ومجرمان ، في لوحة ذات مشهدين متشابهين في الجريمة مختلفين في الأدوار؛ في يمين القسم الأيمن من اللوحة، يميل جندي بجذعه على ضحيته من مسافة ذراع ، يصوّب بقوس ، يلفه دخان لا يتضح مصدره: هل من السهم نفسه ، أم من غيره؟ وهو ما يجعل ملامح المشهد غير واضحة ، فيبدو الفرق هائلًا بين مستوى وضوحها ، ووضوح مشهد القسم الأيسر من اللوحة ، كفرق الزمن بين مسن بات في شيخوخته ، وطفل ولد لتوّه.

تحاول الضحية بكل ما أُوتيت من قوة أن تفرّ، وقد تناثر حولها بعض الزجاج، يتتبعها الجندي بنظره، وشاربه الذي يبدو كعقلة أصبع تحت أنفه ، وصليبه المعقوف ، وزيه الأسود ، فيما تملأ الآذان فضاء ذلك القسم من المشهد.

يطالعنا جانٍ ثان في قسم اللوحة الأيسر، تتطابق ملامح وجهه مع ملامح الضحية الأولى ، إلا في شاربه الذي يتطابق مع شارب الجاني الأول ، يرتدي ثيابًا كأنها بيضاء اللون تحمل أكثر من خط أزرق ، تحاول ضحيته بكل ما أُوتيت من بقايا قدرة أن تغرس أصابعها المتهشمة في الأرض متشبثة بيمناها ، وقد أمسكت بالأخرى ساق الزيتونة المحروقة ، بجسدٍ هزيل نازف جراء السهم الناري الذي أطلقه الجاني عليها ، فيما تعجّ أطراف فضاء المشهد بعيون تعددت ألوانها ، وأشكالها ، وأحوالها.

يقول الرواة:

إن التساؤل كثر عن (ليلة الزجاج المكسور) ، وقد تمت مداهمة حوانيت دون غيرها ، فهل كان أصحابها يتاجرون ، أم يمصّون دماء الناس؟

وزعم راوٍ أن الضحية الأولى جمعت أموالًا وفرّت إلى أراضي : الدب، والعقاب، والفيل، والكنغر، والثيران.. وأنها حازت جبلًا من ذهب كأنها صهرت فيه ألف عجل في حجم ما قدسه أجدادها، وأن أثرها فاق فعل ألف ثور إذا أطلقتهم على الناس.

١١- بلدة الموز:

ثمان صخور يمينًا، ونصف عددها يسارًا، تمثل بداية طريق من أقصى يمين اللوحة ، يمتد الطريق ، تشكله بعض المنحدرات والوعورة ، إلا أنه يستقيم ويتسع بعد ذلك.

يضج الطريق بالمارة، تعلو وجوههم نضرة الشباب ، تبوح بأنهم بين مناهز العشرين، ومن نيّف على الأربعين، يستظل بعضهم بظلال أشجار الموز، تمتد أيديهم إلى ثماره ، يأكلون، تتداخل ظلال الأشجار مع قتامة معاطفهم وقبعاتهم السوداء.

أما مجموع المارة من إناثٍ، وذكورٍ، فلم تمتد يد أحدهم على ثمرة، ساروا في الهجير، فيما أظهرت الشمس ألوان أزيائهم المتنوعة ؛ فتوازنت مع قتامة ثياب أصحاب اللحى.

ينحني الطريق، وتصيبه التشققات في فضائه الذي وصل إليه المارة، ثم يتجه صاعدًا، فتزداد صعوبة اجتيازه في أعلى نقطة منه حيث يقف محارب ضخم ، شاكل وجهه ملامح حلوف ، يوزع على من يصل إليه عطاياه.

فمن يحصد الناي ينتحى يمينًا، يجلسون حلقًا، يأكلون الموز بثقة، يملأ كبير كل حلقة صدره بالهواء، يتعاظم صدره، تُلامسه لحيته ؛ لينفخ في الناي، أما جلساؤه فتتأرجح خصلات شعرهم المجدول على جانبي آذانهم ، وهم مغمورون في نشوتهم، أما من يحصدون السهام ؛ فيأخذهم الطريق إلى منحدر لا تجلّي اللوحة ما وراءه.

يقول الرواة:

قد كثرت أسئلة عند المنحنى الذي أصابته التشققات ، تبحث عن سبب نعيم يصيب بعضهم ؛ فينفخون الناي في الظل ويأكلون، وبعض آخر تأكله تشققات الطريق، وتنفخ فيه ناره .

وزاد أحد الرواة أن السؤال الأكبر من بين تلك الأسئلة ، والذي نقش على صفحة الضمير كثيرًا : " من أنا ؟ ومن هو؟ ".

١٢- أجساد لا بطون لها:

ثلاث مركبات تجرها الخيول ، هُشّمت أجزاء منها، وأشعلت متوالية قذائف النيران سقفها ذا الانتفاخات الثلاثة، سقط راكبوها يقاسون إصاباتهم بالنيران؛ فاستحالت ألوان قبعاتهم البيضاء بلون اختلاط الدم النازف بالتراب والرماد، وهو ما يجعل تمييز لون شعرهم الأصفر صعبًا، لكن المشاهد يستطيع استثناء اللون الأصفر من شعر أحدهم، كما يستطيع تمييز أن أطولهم شعرًا امرأة.

يمر طريق المركبات بمنحنيات، وأشجار زيتون محترقة، وينتهي بتجمع لأطفال كثر لا بطون لهم، ارتسم البؤس على وجوههم ، تمسك أيديهم الهزيلة أوعية فارغة، ينظرون نحو القادمين في الطريق ، بينما ينتظرون لا شيء ؛ فإذا رجعنا نتابع قوس النيران من موضع أهدافه إلى مصدره ؛ شاهدنا حلوفًا ضخمًا وراء المجانق ، وبعض القردة يتقافزون.

يقول الرواة:

إن هؤلاء الضحايا يشبهون (الساميين العرب) في تفانيهم في نجدة الجائع ، وفصّل أحد الرواة بأن العرب يغيثون من مرّ بهم ، أما هؤلاء فيرتحلون إلى أهل الشدة ؛ ليطعموهم.

وزعموا أن أحدهم قبل أن يُقتل في موضعه هذا، شوهد وهو يطبخ الطعام ويقدمه في (أرض الكنجر) حين احترقت أشجارها.

وسخر أحد الرواة قائلًا : كان لا بد أن يقتلوا، حتى يموت الأطفال جوعًا.

وزعم راوٍ أنه شاهد الحلوف الضخم الذي يقذف المجانق راكعًا في حضرة إله الحرب (أريس) ، كي تظل نارها متقدة ، وربة الجوع (ليموس) ، ليفنى بالجوع من لم تقتله الحرب ، وربة الشقاق (إريس) ، ليهلك بالعداوة والخلاف من لم تحصده الحرب والجوع.

١٣- نقش على قائمة سوداء:

عملاق بدائي على الرغم من قوته الظاهرة ، إلا أن ملامح العقد الثامن من العمر تعبر عن نفسها على قسمات وجهه ونسيج عضلاته.

ساعداه طويلان قويان ، على العكس من رجليه اللتين بديتا صغيرتين بعضلات أصابها الضمور، وأصابع ملتصقة ببعضها تنتهي بمخالب مخضبة.

ينحسر إزاره عن ساقيه دون مبالاة فبدا دون قلفة ، يقعد بين كتفيه رأس كأنه رأس حلوف ، وتمتاز أذناه بكبر حجمهما.

يحدّق بعيون واسعة ، ونظرة تنغرس فيما أمسكت كفاه به ، كانغراس أصابعه فيها بأعصابها المتشنجة ، حشر طفلًا بين كفيه وفكيه ، يبدو رأسه إلى أسفل ، وقد حمل وجهه الصغير كل ملامح الوجع والذعر.

على كومة ضخمة من الجماجم يجلس العملاق ، بينما تكوّن أشلاء أطفال كومة أخرى بجانبه ، منهم من فقد ذراعًا، أو ساقًا، أو رأسًا ، تلفّ هذه الأشلاء ما يبدو أنه ساق سوداء لشجرة لا غصون ولا أوراق لها ، قد التفّت عليها عدد من الحيات، تتطابق من بينها رأس حية مع وجه " امرأة عجوز سوداء.. طويلة بصورة لا يُمكن أن تُنسى " ، إذ تبدو للوهلة الأولى عند النظر كنقوش على قرطاس.

يقول الرواة:

بينما يعتصر بعض النظارة الرعب والقبح حين يشاهدون (زحل يلتهم..) ، وبينما تخيم الأجواء والألوان القاتمة على المشهد ، حتى إننا لا نكاد نقرأ ما رُسم على الشجرة ؛ فقد لمعت السماء بنجوم اختارت الألوان : الأبيض ، والأخضر ، والأحمر، والأسود.

وزعم أحد الرواة أن ساق الشجرة إنما نبتت دون أغصان ليسجل عليها عار من أحدث هذه الجثث والأشلاء.

وزعم آخر أن هلالًا وُلِدَ في صفحة السماء ليفضح

(كرونوس) ، وخالفه كثرة تقول : إن ما بدا هلالًا مولودًا في نتفة سحاب كرأس حيوان ، هو جزء من كوكب (المشتري) الذي أخفته أمه عن يد أبيه (زحل) عندما طاردته نبوءة سقوطه عن العرش.

وأضافوا أن (المشتري) على الرغم من البقعة الحمراء العظيمة على جسمه وما يحيط به من حلقات ، فعلى يديه ستكون نهاية قاتل الأطفال.

١٤- لعنة الكاتب المصري:

كومة من كتب وقراطيس، تتداخل صحائفها في أوضاع مختلفة بشكل موحش، كأنما انصبت من جبل ، تتصاعد منها ألسنة اللهب، ويملأ الدخان فضاء الموقف.

يتشكل دَرَج وسط الكومة من العظام، نشاهد قائدًا عسكريًا بلباس الحرب ورأس حلّوف بريّ ينزل عليه ، وبين يديه جمجمة يرشف منها ثملًا.

يلف الكومة أعداد من القرود ، تستنشق أدخنتها ، يتمايلون طربًا ، تطأ أقدامهم أقلامًا ومحابر، وتتناثر بقع سوداء تحت أقدامهم.

في الخلف صف من مسلسلي الأيدي والأقدام، قد جثوا على ركبهم عرايا إلا مما يستر سوآتهم ، وحولهم بعض القرود قد سددوا أسنة الحراب إلى ظهورهم.

يقول الرواة:

إن روح (الكاتب المصري) حلّقت إعجابًا (بأفلاطون) منذ زيارته لمصر، لسعيه العقلاني نحو الحقيقة ، وبسنواته الطوال التي قضاها معلمًا ، وكاتبًا ، وبالمدرسة التي أسسها في (أكاديموس).

وأضافوا أنه قد صبّ لعناته على (لوسيوس كورنيليوس سولا) عندما دمّر المدرسة، وعلى (يوليوس قيصر) عندما احترقت مكتبة الإسكندرية ، وعلى (هولاكو) عندما احترقت مكتبة بغداد، وجعلت روحه تلعن أولئك الذين يحرقون الكتب، ويكسرون المحابر والأقلام.

وزعم راوٍ أن صوت نشيج (الكاتب المصري) على المدرسة والمكتبة المحروقتين بزيتونهم في هذا المشهد، ماثل نشيجه على أكاديمية أفلاطون ، وما زينها من مزارع الزيتون عندما دُمرت.

وأردف أن ذلك النشيج هيّج مشاعر منسوبي العلم، فاستنكروا موقف سيدة التاج ؛ فانتظمت صفوفهم تجوب الطرق والأنحاء في (أرض العقاب)، تلعن الحلّوف السكّير عدو الإنسان والعلم ، وتقسم أن تنشد قصيدة النصر؛ لتستقر روح (الكاتب المصري) في أمان .

١٥- الدّوبل :

في فراشها الناعم الوثير تتمدد (فينوس) بجمالها المبهر، وقد رفعت إحدى ساقيها ملقية بقدمها على كتف من بدا كأنه (كيوبيد) بغرامه وجناحيه ، جاثيًا على ركبتيه أمام سريرها يقبلها بنهم ، فيما تتأمل تفاصيل أنوثتها الطاغية في مرآة ذهبية يحملها بيمناه ، أما يسراه فقد راحت تعبث بقدمها أثناء التقبيل.

وبينما تجلى مثلها متجردًا من الثياب، إلا أنه حمل معه جعبة السهام ، وانتصبت على عنقه رأس حلوف ، تأخذنا ملامح هذا الوجه لوجه الحلوف الأكبر؛ فندهش من الشبه الكبير بينهما، إذ لا نستطيع أن نحكم فوق مرأى (فينوس) ما إذا كان ما نطالعه لوحة فنية ، أم نافذة غائرة البعد في الحياة إلى زمان أو مكان آخر؟ حيث تملأ أشجار الموز الفضاء حول الحلوف الأكبر، يأكل منها بنهم ، يتوزع كثير من القرود فوق الأشجار، يصوّبون سهامهم في غير اتجاه ، وقد سقط منهم عدد غير قليل على الأرض.

يقول الرواة:

إن شواهد كثيرة تبوح بغرام (فينوس) (بأدونيس) ، فهل سجلت لها هذه اللوحة عشق ما بعد (أدونيس) ؟

وقد حقق أحدهم المسألة بأن (فينوس) قد عهدت (لأدونيس) بقتل الخنازير البرية ، لكن خنزيرًا استطاع أن يصرعه ، وتساءل الراوي : هل ظفر الحلوف بها بعد قتله لأدونيس ؟ ومن ثم ترك العالم ، كل العالم هيامًا (بحمام فينوس)!

ويُخالف رواة آخرون بأن هذا المشهد مثّل فترة ما قبل غرامها (بأدونيس) ، وزعموا أن (إلهة الجمال والرغبة) رغبت عن ذلك الحلوف ؛ لفقدانه الذكورة اللازمة ، وهو ما جلّته اللوحة حين بدا متجردًا.

لكنّ راوٍ آخر ذهب إلى أن الفن هو الذي جرده ، ولم يكن ذلك من فعله ، وأن أدوات الصيد التي حملها شهدت عليه ، كي يتضح عفن شأنه ، فليست الجعبة التي معه إلا عقله الفاسد ، وليست السهام إلا سمّه ، وهما ما ورث من الحلوف الأكبر.

١٦- خيانة :

يتقارب الحاضرون ، وتتعدد ملامح المساواة بينهم ، وأشكال التقدير لإلهة العقل والحكمة والسلام والحرب ، ما يزيد المشهد رزانة ، وكأن (الإلهة أثينا) تسعى أن تضم بيديها وغصني الزيتون اللذين قدستهما ما يناهز مئتين من الوجوه التي جمعت بشراتها ألوان الأرض من مشارقها إلى مغاربها .

تبدو مشرقة العينين ، جميلة الشفتين ، وهو ما يبعث على التفاؤل في خطاب الحكمة والعقل في شأن الحرب والسلم ، والحياة التي يتداولها أهل حضرتها.

تأخذ الإلهة مكانها في الطابق الأعلى ، والباقون في الطابق الأسفل ، وتحتها مباشرة في الصدر من المجلس نهضت عجوز سوداء نحيلة الوجه تنظر بعينين حمراوين ، وبيديها قرطاس يطابق ما لدى الحاضرين كلهم ، تمزقه وسط ذهول واستنكار الناظرين.

يقول الرواة:

لم تكتف " المرأة العجوز الطويلة بصورةٍ لا يمكن أن تُنسى " بامتهان الحضرة ، وتمزيق قرطاس نشيدها ، بل نظرت إلى الوجوه التي جمعت بشراتها ألوان الأرض ، ووصفت ما يقومون به بالمهزلة المثيرة للازدراء ، وبالعار.

وزاد راوٍ أنه على الرغم من استضافتها في الحضرة ، إلا أنها تبجحت في وجه حاجبها الأكبر قائلة : إنه غير مرغوب فيه ، وفي وجه الحاضرين جميعهم بأنهم خانوها .

ونقل راوٍ تردد سؤال عن كيفية دخول المرأة تلك الحضرة؟ وإلى أي مدى كانت جديرة بنسبها !

وزعم آخر أن (الإلهة أثينا) قد سلطت بومتها المقدسة على تلك المرأة لقاء تمزيقها قرطاس الحضرة الحكيمة ؛ فلا يعرف أهلها حكمة ، ولا يقبلون سلامًا ، ولا ينتصرون في معركة، بل يقتاتون الحرب أكثر من العدس ، والبصل.

١٧- فن العمارة:

قاعة فخمة ذات عمدان ، وقباب ، ونقوش وزخارف تأخذ الأبصار وتبهر العقول ، يصطف في شكل هلالي من طابقين ثمانية عشر عضوًا ، يمثلون هيئة محكمة ، يعلوهم البهاء والهيبة ؛ فالشعر الأبيض المستعار، والعباءة السوداء الوقورة توحد بينهم ، فيما يتمايزون في أشكالهم ، وألوانهم.

عن يسار القضاة لوحة ضخمة رُسم فيها حلوف له فم تمساح ، يحرسها جنديان بالحراب ، وفي الجهة المقابلة عن يمينهم شخص أمامه عدد كبير من الأوراق على طاولة ، يقرأ إحداها ، وأمام الطاولة انتصب ميزان ضخم له كفتان ، في إحداهما أوراق تطابق ما يقرؤه الشخص في الحجم واللون.

فيما نلاحظ " امرأة عجوزًا سوداء نحيلة الوجه ، طويلة بصورة لا يمكن أن تُنسى "، تقف جانب الباب المجاور للميزان، تطلق من يديها خفاشًا ، فإذا أعدنا النظر إلى القاعة مرة أخرى ، وجدنا خفاشًا ملتصقًا أسفل إحدى كفتي الميزان، وخفافيش أخرى، وثعابين تملأ القاعة في السقف ، والنوافذ ، والأعمدة ، والأركان بجوار القضاة والميزان ، والحراس.

يقول الرواة:

إن السؤال الذي لم يقفوا له على إجابة : هل ما تمت مطالعته في اللوحة من خفافيش ، وثعابين تمثل تكوينات جمالية في عمارة قاعة المحكمة ؟ أم صورًا لكائنات حقيقية استطاعت أن تنفذ إلى ساحة العدالة ؟

وتساءل آخرون عن معنى عدالة تترك جانيًا ليملأ كل هذه الصحف بسفح الدماء ، وحرق المزارع ، وهدم المعابد ، وسرقة الأرض!

١٨- الخطة :

ببنيته الممتلئة ، ووجهه المنمش ، وشعره الأسود القصير، وعيونه الرمادية ذات النظرة التي تشع قوة ودهاء ، يتربع ملك على عرشه بعباءته القصيرة ، وقد أمسك بين يديه تاجًا يُشبه تاجه إلا أنه في مرتبة أدنى من حيث حجمه ، ومقدار زخارفه.

تجلس إلى جواره ملكة ، تبوح ملامحها بأنها تسبقه في العمر، إلا أن وجهها يشع حسنًا ، وبهاءً ، وتفيض نظرتها مكرًا ، واستعلاء ، وتترجم زينتها وثيابها ، وحليها ، عن آفاق غناها ، وترفها ، وتأنقها.

في هيئة تناسب شرف أمير، يركع شاب يشبه الملك إلى حد كبير، إلا في عينيه اللتين تطابقان عيني الملكة ، يُقبّل علم إنجلترا بين يدي الملك .

يصطف عن يمين الملك بضعة جنود: أما الأول فيحمل فأسًا ، أسندها إلى كتفه فيما وضع أخرى تحت إحدى قدميه ، وأما الثاني ؛ فقد وقف بوجه طمست ملامحه ألوان متداخلة لا نسق فيها ، وثياب لا معالم لها ، وأما الثالث ؛ فقد حمل طبقًا فارغًا مقلوبًا ، فيما حلّ محل الرابع مقعد خال ، وأما الخامس ؛ فقد أمسك قارورة رسم عليها رأس أفعى ممدودة اللسان ، وأما السادس فقد أشهر سيفًا قاطعًا.

يقول الرواة:

إن الملكة (إليانور آكيتيان) قد اختلفت مع زوجها في خطته التي رسمها للأمير(جون) عندما ولّاه على (أيرلندا).

ورووا أن الملك أمر بنزع ملكيات أصحاب الأرض ، وإقامة مستوطنات للإنجليز محل قرى الأيرلنديين ، وأمر كذلك بطمس تاريخهم ومشاربهم ، وأصرَّ على تجويعهم ، ثم طردهم من ديارهم إلى الشتات ، وأكدّ على أن تسرع يد الغيلة إلى كل صاحب صوت منهم ينادي بحق ، وشدد على الإجهاز عليهم بالسيف حتى ينقطعوا.

وقد جاء عن بعض الرواة بتواتر مفاخرة (هنري الثاني) - بسياسته هذه - أعمامه في الممالك اللاتينية التي أقاموها في الشرق عند احتلالهم بيت المقدس ، وما حولها ، فيما خالفتهم روايات تصف خيبة أمله الكبيرة في أبنائه حين تمردوا عليه بأنها قطعت فخره.

وتفرد راوٍ بخبر عن الملك أنه رأى في أحفاده عزاءً ، أن يترسموا سياسته هذه أبد الآبدين ؛ ليوطدوا ملكهم على إماراتهم في الشرق.

١٩- انتظروا ألف حورس:

خمسة خفافيش ، يحمل كلٌّ منها رأس شيطان بقرنين أزرقين ، تحتل سماء اللوحة ، فيما يرتقي ثلاثون مَلَكًا في صورة أطفال بأجنحتهم البيضاء من أسفل اللوحة ، يمنحون البراءة وجوههم ، تتداخل أجنحتهم ، يصعدون إلى السماء جسدًا واحدًا مثل زفرة الرحمة.

يستغرق أرضية اللوحة بحر، يركض فيه بقر في غير اتجاه ، كأنهم من وحشٍ يفرون ، وقد تناثرت بقع حمراء صبغت مساحات غير قليلة من صفحة الماء ، كما طفت عليها بعض القراطيس.

يقول الرواة:

إن الإلهة (حتحور) فزعت إلى الأبقار عندما سمعت تلك الجلبة ، وآسفها أن ترى زفرة الرحمة تتكرر، وذكّرها المشهد باليتيم (حورس) ، فزارت عبراتها بقع الدم في (بحر البقر) ، وأقسمت أنها كما آوت (حورس) يتيمًا ، وأرضعته ، أن تجعل من كل طفل (حورس) ليصنع صنيعه.

٢٠- براءة:

بينما يشتعل قرص الشمس في كبد السماء ، تبدو شعلة لهب أخرى تمتد إلى جناحي (عقاب أخوق) من صدره ، فجعلت ألوان ألسنة اللهب : الأبيض، والأخضر، والأحمر، والأسود ، في مسقط عمودي لقرص الشمس على الأرض.

وكأن سبيله المختار إلى السقوط لدى باب ذي خطوط زرقاء ، تُوِّج أعلى يمينه بعمود ذي أصابع ترتكز على أطرافها نصال ، وفي يساره مثل ذلك.

تطل " امرأة عجوز سوداء ، نحيلة الوجه ، طويلة بصورة لا يمكن أن تُنسى " ، من أعلى الباب ، كأنها تتابع سقوط العقاب المشتعل في حنق وازدراء أشعلا عينيها.

نطالع يمين الباب شجرة تفاح كبيرة لها نحو خمسين غصنًا ، تستظل بها من هجير الظهيرة سيدة اعتصبت بتاج له سبعة نصال ، تطابق نصال جانبي الباب ذي الخطوط الزرقاء ، وقد حملت في يسراها كتابًا عليه نقوش ، نميز منه العدد (سبعة) ، أما يمينها فقد امتدت تقطع الثمرة الوحيدة اليانعة من بين مجموع الثمار التي فسدت ، وقد اشتدت حمرة التفاحة كأنها شعلة اللهب التي ندّت عن الشمس ، وهي تنظر إلى الثمرة ، وملء عيونها الربكة ، والذهول ، كما نلاحظ سقوط شيء من ردائها عن كتفها ؛ فتجلت بشرتها صفراء.

يقول الرواة:

إن العقاب لم يشتعل في الجو ؛ وإنما احترق أمام الباب الذي برزت منه المرأة التي لا يمكن أن تنسى ، وقد سمعوا زفرة غيظ من تحت ضرسها تنبح : (آرون) ، وهو ما أكده آخرون زعموا أنهم تابعوا مشهد احتراقه معكوسًا على صفحة كوجه الشمس.

وقال بعضهم : إنه كان يتألم من وخز، وضيق صدر، انتهى به إلى الاحتراق ، فيما ذهب غيرهم إلى أن المرأة أشعلت النيران في الحمائم وأعشاشها ، إلى الحد الذي يكاد يبيدهم ، ولا يبقى منهم شيئًا ؛ ما أدى إلى احتراقه.

وادّعى غيرهم أن جناحيه ظلا يرفرفان بعد احتراقه ، وأن ألوان ألسنة اللهب : الأبيض، والأخضر، والأحمر، والأسود ظلت تلون جناحيه إلى أن لحق بالحمائم ، كما أن سقوط الرداء عن كتف المرأة المعتصبة بالتاج ذي النصال السبعة ، جعل النظارة يتأكدون من قدرتها على تغيير لونها.

٢١- تحطيب:

في أُبَّهة الإيوان الملكي ، الزاخر بفنون العمارة ، والزخارف والستائر ، والفرش ، يجلس قائد عسكري على الكرسي الفخم بخوذته وترسه ؛ فكأننا أمام قائد من حديد ، يملأ جوانب كرسيه ، غير أنه لا يظهر منه إلا بؤبؤ العين.

يميل بصدره إلى الأمام ، وقد أطبق على السيف من المقبض بكفيه ، مرتكزًا على ذؤابته التي غاصت في السجادة الفارسية النفيسة ، وقد جعل مضرب السيف مقابلًا لذي عمامة سوداء كبيرة ، ولحية بيضاء كثة ، وعباءة فاخرة ، حافي القدمين ، قد ركع إلى أن لامست شفتاه الأرض ، وعن يمينه صحن فضي فيه صخرة نُحتت كقطعة من برج قلعة ، ثبّت عليها عش طائر ؛ فبدت أقرب ما تكون إلى (وكر عقاب)، وضعت فيه ريشة من جناح صقر.

يقول الرواة:

عندما رأى أحد الحكماء (ركنَ الدين خورشاه) يقبّل الأرض أمام (هولاكو) ، ويذعن للأمر بتسليم قلاع الشام بعد (قلعة آلموت) ، تنبأ قائلًا : عندما تلد النار المقدسة الأخطبوط ، ذراعًا تمتص الرافدين، وذراعًا تجتث شجرة الأرز ، وذراعًا تحرق باب القلزم ، ويعتلي ذو العمامة السوداء الكرسي ، وتخرص الأرض ، وتَرمي النجمة الزرقاء أرض الزيتون النازف بشرر كالبركان من رؤوسها الستة ، سيحطّب صاحب النجمة وصاحب الأخطبوط أمام العيون.

٢٢- حقيقة النور:

يجمعه شبه كبير بالمسرح الروماني ، وإذا كانت عدد مقاعده تختلف من مكان لآخر ، فباستطاعتنا تمييز خمسمائة وسبعة وسبعين مقعدًا في هذا المشهد.

تعلو الوجوه ملامح التوتر ، وتبوح عيون الجالسين ذات اللون الأزرق بالأجواء المشحونة.

نهض أحدهم من موضعه في طرف يسار المشهد ، رافعًا يده ، محتفيًا ، يلامس طيفًا ضوئيًا كونته ألوان أربعة: الأبيض ، والأخضر ، والأحمر ، والأسود.

لكن الحنق يبلغ منتهاه في انفعال امرأة في صدر المسرح ، وقد استندت إلى برج شبكي ، له رأس أسد من ناحية ، ورأس نسر من ناحيته الأخرى ، فيما يلفه فرع من البلوط ، وإكليل الغار ، تنصب المرأة سبابتها على شفتيها ، فيستطيل أصبعها بحيث تختفي معالم أنفها خلفه ، محدّقة بعنفوان غضوب إلى رجل الطيف الضوئي الذي أحاطه ديكان.

فيما تكشف الأقواس السبعة عشر المكسوّة بالمرايا ، الحاضرة في صدر المشهد ، وكذا مراياها الإحدى وعشرون المكونة لكل قوس أضواء نجم أزرق ، عكسته طبيعة تركيب المرايا ، فأمست أعداده لانهائية ، كأنها سماء لا نجم فيها إلا ذلك النجم الساطع الذي ملأ بريقه عيون كثرة من النظارة ، وعين المرأة التي وطأت بنعليها الأنيقين قبعة وفأسًا ، قد انخلع رأسه من يده.

يقول الرواة:

إن (رجل اليسار) الموصوف (بالأبيّ) استنكر وطء المرأة (لقبعة الفريجة) ، وتساءل: ما الذي يجعل مدينة من نور تضيق بطيف ضوء ، وتستضيء بنجم واحد دون غيره؟

وزاد الرواة عن غير ذلك الرجل تساؤلهم : ما الذي يجعل رحاب بلاد الجن والملائكة تقبل عمل الشياطين؟

وروى بعضهم أن أصداء سؤال عن حقيقة النور في مدينة النور ظلّت تتردد!

٢٣- الدرس الكبير:

عربة الفرعون الملكية في مقدمة صفوف الجيش ، تجرها الخيول القوية ، يكاد الناظر إلى اللوحة لوهلته الأولى يتراجع إلى الوراء ، تحسبًا لسيقان خيولها في خطوها للأمام ، كأن ساقيها الأماميتين ستصيبه ، فيما يمتد المشهد خلفها في عمق اللوحة إلى مد البصر.

تتهادى خيول العربة ؛ ليستعرض الموكب المودعين المصطفين على جانبي الطريق ، وقد حمل بعضهم سعف النخيل ، فيما فرش آخرون أمام الموكب على الأرض بعض ثيابهم التي تختلف مع أزياء المصريين ، كما تباينت ملامح وجوههم معهم.

يبدو الفرعون في بنيان متين ، فعضلات صدره وبطنه ، وساعديه ، وساقيه من أكثر ملامح اللوحة وضوحًا ، تستقر بين هذه العضلات تنورته القصيرة التي انحسرت فوق ركبتيه بقليل ، وقد جلى بياض التنورة سمرة بشرته الفتية ، وقد كلَّله غطاء رأس تجاورت فيه الخطوط البيضاء والذهبية ، وياقة على كتفيه بالألوان نفسها.

أما أكثر ما يلفت من ملامح وجهه ، فنظرته العميقة التي وجّهها إلى ما يستقبل ، وليس ما يشغل طريقه عن يمين ويسار ، على الرغم من حفاوته وكثرته.

حافيًا عن يمين الملك المصري يجري شخص ، تشبه ملامحه وثيابه الجموع المصطفة ، بطين ، قد أمسك تاجًا صغيرًا بيساره ، وقد جعلها خلفه ؛ فظهر في اللوحة بعض التاج ، بينما رفع يمينه يلوح بها مبتسمًا للفرعون.

يقول الرواة:

إن جميع المغنيين والمغنيات ندبوا (يوشيا) في مراثيهم ، عندما ناله الرماة المصريون.

وزاد أحد الرواة أن المصريين كانوا متجهين لحرب عند الفرات ؛ فعرض (يوشيا) لهم ، فأرسل إليه ملك مصر: "مالي ، ولك يا ملك يهوذا ، لست عليك أنت اليوم ، ولكن على بيت آخر أحاربه، ولم يحوّل يوشيا وجهه عنه، بل تنكر لمقاتلته" ؛ فلقنهم المصريون درسًا كبيرًا.

وزاد راوٍ أن (نخاو الثاني) عند عودته من (كركميش) مرّ (بيهوذا) فوجد عليهم (يهوآحاز) فخلعه ، وجعل عليهم (إلياقيم) وغيّر اسمه إلى(يهوياقيم) ، واقتاد(يهوآحاز) معه أسيرًا إلى مصر ، وفرض عليهم ضريبة ، وحكم(يهوياقيم) (يهوذا) تابعًا لمصر.

٢٤- كلب الجحيم:

تملأ المشهد بنظرتها الجريئة ، سيدة جمَّل وجهها أصباغ مبهرة ، يزين بهاءها تاج له سبعة أسنة مثل أشعة الشمس، تضيء العالم بسنائها، كأن نقوش ردائها يدان تنفكان من قيدٍ، تحمل بإحدى يديها جعبة سهام ضخمة، وعلى كتفها علقت القوس ، فيما أمسكت بيدها الأخرى سلسلة ذهبية تنتهي إلى لا شيء في درب على أطراف غابة .

تعجّ السماء فوقها بخمسين نجمة ، لكن النجمة المعكوسة في عيون كلبها تختلف عن هذه النجوم شكلًا ، ولونًا.

يسبقها إلى الأمام ركضًا، له ثلاثة رؤوس بأعناق مطوقة بالذهب، وآذان كبيرة، ومخالب قط ، وذيل حية ، لكن اللوحة تقطع طريقه، فلا نكاد نعرف شيئًا عن طريدته، أو ما يؤول إليه ركضه.

يقول الرواة:

اختُلف في شأن كلب الجحيم (سيربيروس) هل أطلقته سيدة الأصباغ المبهرة ؟ أم انطلق رغمًا عنها ؟

وزعم راوٍ أنها أطلقت الكلب على حي من الأحياء ؛ لتجعل منه عالمًا سفليًا، ويؤكد ذلك أن أكبر أخدانها عمرًا سُمع يقول: " لو لم يكن هناك (سيربيروس) لربيته، أو اشتريته " ، وقد رأى خدن آخر سبقه إليها ولحقه عليها، أن مأوى الكلب صغير جدًا، وأنه يفكر كيف يمكن توسيعه ؟

وقال بعض الرواة : إن ربة الصيد (آرتيمس) أغضبها أن تتخذ السيدة قوس صيد يشبه قوسها، ثم تطلق كلبها يستبيح ما كانت الربّة تعفّ عن صيده، أو تحميه، وأنشأت تسخر من ترك السيدة للشعلة والكتاب، ثم سلطت عليها حيوانها المقدس، فتمثّل بشرًا، واقتحم بقبعة الفرو، وقرنين، وصدر عار قدس السيدة إبّان موسم الاختيار الكبير، فأسقط بقرنيه رداءها ؛ فهوى معه بهاؤها ، فلما تجلّى لخدنها الأكبر جعل يُصافح الأشباح، أما الآخر فانكشفت مغامراته مع البغايا.

٢٥- ضد الطُّعمة والأمن :

نظرة حادة لنسر ذهبي ، يبسط جناحيه القويين أعلى يسار اللوحة ، يتماس جناحه الأيسر بحائط غليظ يقسم اللوحة فضاءين.

أولهما: تجوبه الأدخنة ، يصطبغ بالحمرة ، تملؤه كومات الرماد، والأشلاء ، تنهض فيه سيدتان تدفعان الحائط بكل قوةٍ نحو النسر.

ثانيهما: يظلله النسر بجناحيه ، في ظل جناحه الأيمن تسير قافلة يقودها شباب من أهل البادية ، وفي ظل جناحه الأيسر تمتطي سيدة شابة وضيئة وقورة حمَارًا، وبين ذراعيها رضيع يشع بهاءً، يرافقها شيخ تعلوه ملامح الحزن.

في الخلفية منهم بناء هرمي من ثلاث نسخ مختلفة الحجم ، أما السيدتان اللتان تدفعان الجدار بكل قوة، فإحداهما شابة بيضاء، زرقاء العينين ، على رأسها تاج من سبعة أسنة ، قد سقط رداؤها على الأرض؛ فبدا ظهرها عاريًا تمامًا، ومن تحت أطرافه تبدو رأس شعلة منطفئة وكتاب ، والأخرى "عجوز سوداء نحيلة الوجه، طويلة بصورةٍ لا يمكن أن تُنسى"، توجت رأسها بالشمعدان.

يقول الرواة :

لمّا قلق (هيرودوس) من فقدان عرشه ، وعرف من رؤساء الكهنة موضع الممسوح ، عزم على قتله ؛ فارتسمت سبيل النجاة : " قم ، وخذ الصبي ، وأمه ، واهرب إلى مصر" .

وقالوا أيضًا : لمّا حلّ الجفاف ، ونضب الخير: " جاءت كل الأرض إلى مصر، إلى يوسف ؛ لتشتري قمحًا ؛ لأن الجوع كان شديدًا في كل الأرض ".

وأجمعوا أن بوح ضمائر الحاضرين أنشد : هي طعمة من جوع ، وأمن من خوف ، وتساءلوا: ألهذا ضيّقتا عليها ؟!

٢٦- فرية الدم:

بضعة رجال في ملابس شعبية ، تبدو على وجوههم ملامح الغضب ، يشير أحدهم إلى تابوت رفع غطاؤه الخشبي ، فبدت بقعة دم كبيرة في مركزها دائرة سوداء ، وعلى مقربة منهم يقف رجل ثيابه فاخرة ، يحمل حقيبة صغيرة ، محدّقًا في التابوت.

على الجانب المقابل من القاعة، وتحت قبة كستها الزخارف المتنوعة، وحملتها عدة أعمدة تبوح بأنفاس أندلسية، وعلى كرسي فخم ، يجلس الملك مرتديًا ثيابًا كرقعة شطرنج ، تتقاسمها مربعات باللونين: الأبيض ، والبرتقالي، وقد انتصب في كل مربع أبيض أسد على إحدى قائمتيه الخلفيتين.

وعن يمين الملك، منضدة مذهبة رصّت عليها كتب : (كليلة ودمنة) ، و(الضروري في السياسة لابن رشد)، و(صولجان يهوذا).

وبعد موضع الكتب يجلس رجل ثيابه راقية ، قد علّق صليبًا ذهبيًا يشبه صليب حامل الحقيبة ، يبدو كنصف حجم صليب الملك ، لكنه أكبر من صلب العامة ؛ فيما يتوسط أعلى الجدار الذي يشكل مركز المشهد لوحة كبيرة لشخص ، تطابق ملامحه وجه الملك إلا من حال عبوسه الآنية ، كُتب عليها بخط دقيق - يحتاج إلى ملاحظة بالغة لرؤيته - (ألفونسو العاشر).

يقول الرواة:

إن التساؤل كثر عن سبب وجود الطبيب (شلومو بن فرجا) بجوار من شكوا عثورهم على قتيل في بيت يهودي.

وأضاف الرواة أن غضبهم سكت حين قال لهم المتنصّر

(توماس) : إن الملك سيمنع اليهود من الربا، وسيرد عليهم ضياعهم.

وزاد الرواة أن الملك حين لمح الراحة في وجوههم سألهم عن الحقيقة ؛ فأقروا أنهم هم من ألقوا المقتول في بيت اليهودي ؛ فحلّت الراحة على ملامح الملك بعد أن جلَّى (فرية الدم).

وزعم راوٍ أن الملك لم يستطع أن يمنعهم من الإقراض بالربا ، ولا من سلب المال والأرض ، ولا عن كف نظرتهم المتعالية تجاه الناس ، بل لم يستطع أن يحدّ من تقربهم إليه ، وتأثيرهم عليه.

٢٧- البقر الأحمر:

جبل من حصى، يصعد عليه يمين اللوحة رجلان بلحيتين عظيمتين ، وشعر مجدول ، يسحبان وراءهما بصعوبة قطيعًا من البقر ذي الحمرة النصّاعة ، إلا من طوقين أزرقين في عنق كل منها.

يمضي البقر في طريقه ؛ حيث وضعت أعلى الجبل كومة من حطب الأرز، وطست ، وبعض المعاول ؛ فإذا أمعنا النظر، بدا لنا الجزء المقابل للشمس من الرجلين لامعًا ، كأنه فضة ، واتتها الأشعة المرسلة من الغرب.

وبمزيد من التأمل والتدقيق ، يظهر بنيان الرجلين بعباءتيهما : إحداهما من دنانير، والأخرى من خناجر، كما بدا حصى الجبل ثمار زيتون ؛ فتجلّى المشهد على (جبل زيتون) ، عن يمينه تينة عجفاء، وعن يساره عند سفح الجبل تحتل التكوينات الصخرية جزءًا من قرص الشمس أثناء غروبه ، وقد صنعت البقع البرتقالية له عينين كأنه ينظر بهما تجاه البقر والتينة الذابلة التي تجمّع حولها كثرة من الناس بين ثمل ، ومتمايل طربًا ، يصغون " لامرأة عجوز سوداء نحيلة الوجه طويلة ، بصورةٍ لا يُمكن أن تُنسى " وهى مستندة إلى التينة ، وبين يديها القيثارة . أما سماء اللوحة فقد شكلتها قطع من السحب، حال اجتمعت إلى بعضها صارت قبة رصاصية اللون.

يقول الرواة:

إن إله الشمس والموسيقى (أبولو) حين نظر من خلال قرص الشمس إلى قطيع البقر، عرف أبقاره التي سرقها منه (هيرميس) ، لكنه أنكر الأطواق الزرقاء ، وظن أن هذا مما أضافه اللص على البقر تضليلًا.

وزعم راوٍ أنه عندما هاج غضب صاحب الحق ، خلق اللص القيثارة ، ودفع بها إلى امرأة لا يمكن أن تنسى ، فأنشأت تغني ما ادعت فيه أنه راعٍ للبقر، لا يطلب إلا التطهر برماده ، فتعجب صاحب الحق من كذب اللصوص المفضوح ، واندهش أكثر من أولئك الذين منحوهم آذانهم وأطربهم غناؤهم .

وزعم آخر أنهم رأوا في حدقتيّ " العجوز السوداء، نحيلة الوجه الطويلة بصورة لا يمكن أن تنسى "، أعمدة طويلة لبيت مزخرف كبير.

٢٨- حمار المسيا:

نستطيع - عبر ملاحظة دقيقة - أن نتبين أثرًا مطموسًا لرسم حلّوف تم تعديل خطوطه ، فصار حمارًا برأس كبير، يحتل محيط عينيه اللون الأبيض ؛ أما مقدمة الرأس فلا فرو فيها ، أذناه طويلتان ، أما ذيله فقصير، ينتهي بخصلة شعر.

سيل من القرود وراء الحمار، يموج بعضهم في بعض ؛ فلا يكاد يتضح ما إذا كانوا يدفعونه إلى الأمام ؛ أم يقودهم ويجرهم وراءه .

يركب على ظهر الحمار قرد ذو لحية عظيمة ، يحمل علمًا أصفر، رُسم فيه تاج أسود ، وعلى جانب الطريق الأيمن يصفق للموكب جمهرة غفيرة ، وقد اختار الموكب هو الآخر اليمين ، بينما تخلو الجهة المقابلة إلا من عدد قليل يعدّ على أصابع اليد الواحدة ، وقد أسند كل منهم رأسه بيده ، يتابعون المشهد بعيون ملؤها الضجر.

يطأ الموكب بحرابه ما يجدونه في طريقهم من أهب ، وكذلك ما يقابلهم في مسيرتهم ؛ فاصطبغ دربهم باللون الأحمر النازف ، إلا أن فضاء ضبابيًا غطّى ما يستقبلون ، فلا نكاد نتبين معالم ما فيه.

يقول الرواة :

دلتنا همهمات الموكب أن خلف الضباب ملكًا يجلس على كرسي ذهبي ، قد جمع إليه أبناءه من كل حدب ، وأمامه ميزان تساوت كفّتاه ، وبناء عتيق ذو أعمدة تلفه الجلالة ، يجري الماء من أمامه ومن خلفه ، وتذبح تحت قدميه القرابين.

وقال آخر: إن (الإله ست) حل بصورته في الحمار المطية ، فلما رأى الدم يسفكه الموكب ، تذكر ما فعله بأخيه (أوزوريس) والتابوت الذي أعده له ، وإلقاءه له في النيل ، وتراءى له نداء (الإله رع): إن صفحة الماء التي يشرب منها أبنائي ، وحملت (أوزوريس) لا يقربها كرسي ليس لي.

ركض (ست) بكل ما أوتي من قوة ، يجوس خلال الضباب ، بحثًا عن الكرسي ،غير أنه لم يجد أثرًا لأي شيء ؛ فأرسل على موكب (حمار المسيا) العواصف والظلام إمعانًا له في التيه.

وقد أشار بعض الرواة إلى سعادة أهل الموكب ، إذ وجدوا مطيتهم التي تأخذهم إلى مبتغاهم ، لكن أحد الرواة زعم أن الحلوف المطموس لا يهمه المخلّص ، بل خلاصه هو.

٢٩- أبناء الفولجا :

فرس نحاسي اللون يبرق كأنما غسل بزيت ، تفصّل عضلاته قوته ، ينحو رأسه وأذناه إلى الصغر؛ يُضيء اللون الأبيض فوق حوافره ، زيّنه سرج مزخرف بلونين : الأصفر، والأحمر، وقد أمسك بلجامه جندي في صرامة كاملة .

إلى الداخل في الإيوان يقف خلف الحصان أمير أزرق العينين ، بتاج من الذهب الأبيض ، وقميص أزرق ينتهي بتنورة قصيرة لونها أحمر، يغطي ساقيه وقدميه بوت من جلدٍ فاخر، يرفع يده بكأس ؛ لتلتقي بيديّ قائدين مبتهجين ، قد أمسك كل منهما خوذته بيمينه ، وكأسه بالأخرى.

فيما انعطف جندي بجزعه يمينًا، وقد أطبق على سيفه بكلتا يديه ، واتخذ سبيله بكل عزمٍ ؛ ليقطع خارطة جلدية خلف موقف القادة وكرسي الملك الذي مزق حشوه تمزيقًا.

نلاحظ في الخارطة ؛ الكتابة المذهبة لاسم (مملكة الخزر) ، والعناية بحدود الماء الذي يجلي موقع المملكة بين ساحلين: (بحر الخزر) و (بحر البنطس) الذي لُوّن باللون الأسود، فيما تعلو الخارطة نجمة ذهبية ذات ستة اتجاهات.

يقول الرواة:

مع اصطكاك كؤوس نخب النصر، قال القائدان لأميرهم (سفياتوسلاف): إنه أشجع من أدّب (الخزر)، بعد أن كفت الحرب بين هؤلاء المغلوبين ، وبين الساميين العرب .

وزعم راوٍ أن نشوة النصر أخذت الأمير؛ فأقسم ليشتتنّ أبناء الفولجا في الممالك رحلًا كما كانوا ؛ كي يكفوا عن جباية المكوس ، والاحتكار، وجمع الذهب ؛ وكي يستكينوا في معاطفهم الطويلة السوداء.

٣٠- المستأسد :

برشاقة قوام يناسب فتاة في ربيع العمر، وصلابة تجلّيها عضلات مشدودة في الساعدين والساقين ، تلائم مهمة القنص ، وشموخ في الوجه المرفوع يتوافق مع قائدة أو أميرة ، نُطالع امرأة تسير في غابة ، ووراءها تابعاتها.

وقد اتخذن كلهنّ لباس الصيد: قميصًا دون أكمام ، وتنورة قصيرة بألوان مبهجة متنوعة ، تممت نضرة الغابة ؛ فازداد المشهد رونقًا ، وكذلك زوجًا من أحذية الصيد ، وجعبة السهام.

وعلى الرغم من أنها لا تتميز عنهن بمزيد من جمال ، إلا أنها اختصت بجناحين لطيفين جعلاها أكثر جاذبية، وأنوثة.

تتوزع اتجاهات خطوهن بين الأشجار، وكذا عيونهن ، فبدين كلهن يستقصين المشهد، كمن يبحث عن صيدٍ.

وفي الجهة المقابلة في أقصى اللوحة، نلاحظ فتاة تشبه ملامحها الفتيات الصائدات ، ويتطابق لباسها معهن، شاحبة ، قد بلل الدمع خديها ، تركض نحو المرأة ذات الجناحين.

يقول الرواة :

بينما كانت (دافني) تجمع ثمار الزيتون من الروابي المباركة في الأرض القصيّة ، رأت حلوفًا يستأسد على فتيات ؛ فأسرعت تركض عائدةً لتخبر ربتها لتنقذهن .

وروى آخرون أنها ألقت الزيتون وسعت لقنصه ، أو قتاله، فهرب ، واختبأ وراء الشجر؛ فبحثت عنه وعرفته من قلفته المقطوعة ، فقد كان كبير الشبه بالخنزير البري الذي أرسلته ربتها في بعض المهام .

وذكر راوٍ أيضًا أن حلّوفة شاركته موضع الاختباء ؛ فظهرت أجزاء من جسده دلّت عليه : أذناه الكبيرتان، وما حولهما من شعر بني؛ فلما تقدمت الحورية نحوهما، هجما عليها ، وأرهباها ، ثم أفسدا ذلك الموضع من الغابة، ثم فرّا.

وأكد الرواة أن الإلهة (آرتميس) حين عادت إليها (دافني) بوجه صبغته الصفرة ، وأخبرتها بما حدث ؛ غضبت وأقسمت أمام حورياتها أن تُرجعه ثانيةً يرعى في روابي (الفولجا) و(فيستولا) من حيث أتى، أو لتُذيقنه ما ذاقه (أكتيون) مسخًا، وتمزيقًا ، ثم جعلت تضرب الهواء بجناحيها.

٣١ - اكتشاف حتحور:

في غرفة أضاءتها أشعة شمس الضحى؛ حيث يبدو في أقصى الأفق من النافذة قرص الشمس بجوار هرم ضخم، تجلس سيدة شابة ترتدي فستانًا مطرزًا بدون أكمام ، له أشرطة على الكتفين ، فوقه رداء شفاف ، يكلل رأسها شعر مستعار بتسريحة أنيقة ، تزيد خطوط الكحل الأسود عيونها وسامة فوق وسامة بسمتها.

تعالج بيديها قرطًا برّاقًا في أذنها، وأمامها صندوق صغير مفتوح ، تلمع محتوياته : قلادة ، سوار، عقد ،خلخال ، خمسة خواتم أو يزيد ، وعلى الرغم من تداخلهم إلا أنهم يحكون قدرة فائقة في زخرفة ونقش الحلي ، أما عن زخارف الصندوق الخارجية بين غائر وبارز؛ فيمثل تحفة أخرى في الفن والذوق.

تجلس إليها امرأة تحمل طفلًا ، يبدوان في هيئة بسيطة ، وقد امتدت يداها تجاه الصندوق ، وما بجواره من ثياب ، بينما تتابع عيناها بنظرة ثعلبية متلهفة يديّ جليستها وهي تخلع القرط.

يقول الرواة:

إن الإله (حتحور) حين شاهد ما حدث بين المرأتين ؛ تذكر حكمة (بتاح حتب) " لا تثق من أعماق قلبك ، فيما جمعته من ثروات ؛ لأن كل شيءٍ هو عطاء الإله " ثم راح يتابع المرأة التي استعارت الحلي حتى خروجها من المدينة ، إلى أن جعل أحد الصناع من ذلك الحلي عجلًا ، فحلّ (حتحور) بصورته في العجل ، يزن مقدار ما به من ذهب ، فإذا بجمع من الناس قد استقبلوه يقدسونه ؛ فرأى (حتحور) من بينهم المرأة التي خرجت بالحلي وعرفها ؛ فغادر جسد العجل الذهبي أثناء خواره مزدريًا.

٣٢- صياد المجانق:

فيل بضخامة تل ، اصطبغ جلده بلون الأرض ، مجدوع النابين ، مقطوع الخرطوم ، تشي رأسه بملامح حلوف أكثر منها ملامح فيل ، هزم السواد وجهه الأبيض ، يجر وراءه صفًا طويلًا من مجانق تكسرت بعض أجزائها، واحترقت أخرى، قد وضعت عليها جثث قرود، يكاد بعضها يقع على الأرض جراء سحبها في درب وعر بين الرمال وأحجار الفيروز ، يقطع طريقه من يسار اللوحة إلى يمينها.

ترتسم ملامح شامخة لرأس صياد شاب أسفل يمين اللوحة ، لوَّن القمح وجهه ، كأنه مدّ عضده المفتول ، ونصب ذراعه ، وأطبق كفه على أصابعه المتينة ، وقد رفع السبابة ، والوسطى، وفرّج بينهما ، فاستطالتا ، وبدتا ماءً ، يروح مع الوسطى مداه إلى أن يلتقي بالماء الأبيض، يجمع الأصبعان فضاء المشهد، ويلي الماء الممتد من الأصبع الوسطى من الداخل آثار حصون مهدمة.

فيما تُهيمن نسور حادة النظرات ، صافات أجنحتها على سماء اللوحة ، وقد بدت بينهم نجمة خماسية انعكست في عين الصياد بهاءً.

يقول الرواة:

إن الحالة التي وصل إليها الفيل في المشهد ، أثارت سخرية النظارة ، وتساءلوا: كيف استحال وضع الفيل وجيشه الذي لا يُقهر إلى هذه الهيئة المزرية ؟ وتذكروا هزيمة الفرس - وهم أصحاب فيل يفتك بكل شيء - على يد (الإسكندر المقدوني) يوم (غوغوميلا).

وزعم راوٍ أنه سمع كلمات يحكي صوتها : الحمد والعطاء والشرف عن الصياد ، وأن ملامح عمر الشباب في وجهه طابقت أعداد المجانق التي اصطادها ، وقد بلغت ثلاثة وعشرين منجنيقًا.

وزعم غيره أن مرأى الفيل المهزوم يجر المجانق ، قد نسخ ثانيةً بعد رحيل الصياد عن الحياة بسنين ، مثل عمره يوم كان يصيد المجانق.

٣٣- الآلهة السكارى :

يتألق سنا البدر في صفحة السماء، فيمنح اثني عشر شخصًا يفترشون قمة جبل ضخم لمعة الفضة ، وهم متخذون أوضاعًا متعددة تشي بتمام النعيم ، واللذة.

تمتد كتل الجبل الصخرية من يمين اللوحة إلى يسارها في نصفها الأعلى ، يشارك النبات المشهد كلما استطاع أن يتحدى بأس الصخور، ساعد على كشفه مع ضوء القمر كثرة المشاعل في أيدي الجماهير التي جلست تشاهد سباق العدائين على مصطبة ، تمتد بامتداد مضمار السباق في توازيه مع الجبل.

تظهر المسافة بين قدمي كل عداء مع حركة الساقين سرعتهم، كما تظهر بعض ملامح تكويناتهم العضلية في السوق ، والصدور، إذ يحمل كل منهم رايته التي يمثلها في المسابقة؛ فتعددت الرايات : أشكالها، وألوانها.

تكوّن الألوان : الأبيض، والأخضر، والأحمر، والأسود إحدى الرايات ، يتذيل حاملها السباق ، إلا أن يمينه النحيفة ذات الندبة الغائرة قد استطاعت أن تضم رايته إلى صدره ، كأنها انغرست فيه ، أو نبتت منه ، وعلى الرغم من تأخره إلا أن نظرة شموخ وإصرار صوب إكليل أوراق الزيتون والشعلة الأولمبية على المنصة ، قد ميزته بين المتسابقين ، كما ميزه بينهم أيضًا حذاؤه المخروق.

يقول الرواة:

على الرغم من ترنم بعض المتسابقين والمشاهدين بالنشيد الأولمبي ، إلا أن المتسابق ذا الندبة الغائرة في يمينه رن صوته؛ فتردد صداه : " أيها المارون بين الكلمات العابرة ، آن أن تنصرفوا، وتقيموا أينما شئتم ، ولكن لا تقيموا بيننا، فلنا في أرضنا ما نعمل، ولنا الماضي هنا، ولنا صوت الحياة الأول، ولنا الحاضر، والمستقبل؛ فاخرجوا من أرضنا، من برنا، من بحرنا ، من قمحنا ، من ملحنا ، من جرحنا ، من كل شيءٍ، واخرجوا من مفردات الذاكرة. "

وروى آخر أن ربات الفن طربن مما سمعن من المتسابق ذي الندبة في أول مرةٍ يرونه ؛ فغنين أمام الآلهة الأوليمبية : إن ذلك الماجد صاحب الندبة سيموت جائعًا نازحًا.

لكن شراب الساقية (هيبي) كان قد أسكر الآلهة ، فقالت ربات الفن في أنفسهن : ما كان لهذه الآلهة التي قبلت حوزة (بيلوبس) للأميرة والمملكة برشوة سائق عربة الملك ؛ ليصرعه غدرًا أن ينصِف ذا الندبة .

وزعم راوٍ أن الآلهة سكروا؛ كي لا تذكّرهم الندبة الغائرة في ذراع الماجد ، والطريقة التي سيموت بها بغدر منشئ هذه الألعاب والمسابقات: الملك (بيلوبس) بالملك (أوينوماوس).

٣٤- الجاثوم :

على السرير التليد ذي الفراش الرغيد استلقت ، وقد انحنى منها خصرها ؛ فانزاحت رأسها لأسفل ، واسترسل شعرها يلامس الأرض مع يدها اليسرى ، كأنه ينسكب من رأسها، تكاد تلامس بيدها غطاءها ذا اللون الأبيض الذي سقط عنها بخطوطه الزرقاء .

تشي عيناها المغمضتان ، وشفتاها المنفرجتان ، بأنها تعاني أشد المعاناة في عالمٍ آخر.

وثمة كائن ضن بملامحه أن تظهر؛ فيحثنا الخيال على أن نتلقاه غولًا ؛ فيما تتوقع خبرتنا حضوره شيطانًا ، إلا أننا مع تدقيق الملاحظة في أجواء الغرفة المظلمة ، والستائر قاتمة اللون ، نتعرف على ملامح رأس حلوف تعلو ذلك الجاثم على صدر" المرأة العجوز السوداء نحيلة الوجه ، الطويلة بصورةٍ لا يمكن أن تُنسى"، وبينما نتبين التفات الحلوف نحو شمعدان منطفئ ، نُلاحظ أجزاء من رأس حصان تلتفت بين الستائر نحو شمعدان آخر منطفئ يُقابل السابق.

يقول الرواة:

إن ظهور أجزاء من رأس الحصان دون توافر مكان لجسده ؛ جعل حضوره شبحيًا ، يتماهى مع الجاثوم الذي يكاد يودي بحياة النائمة.

وقالوا : إن موطن (كيلبي) بالقرب من البحر يغوي المسافرين بامتطائه ؛ فيُغرقهم.

لكن أحد الرواة ذهب إلى أن (أنكيوبوس) هو الذي اعتلى المرأة ؛ لغرض غير عفيف كما هو معلوم عنه ، وأن الظلام الذي حل بالغرفة كان من أجل ذلك ، وأن الالتفات نحو الشمعدان كان لإطفائه.

وقال غيره : إنه نوم قهري ، تحتم عليها بعد وصولها هذا العمر الذي وصلت إليه ، وإنها ورثت تلك الحالة عن جدتها في غابر الزمان، وإن الحلوف لا خيار له فيما فعل مع ابنة الثمانين .

٣٥- القراصنة :

ريح عاتية ، تكاد تخلع الشراع السداسي للسفينة ، وهي تواجه جبالًا من الأمواج المتلاطمة ، وبينما نطالع سارية تسقط ؛ فإذا بغيمة مخروطية دوارة تنتصب ؛ فتصل البحر الذي تُحاول السفينة أن تمخره ببحر أعتى يعلوها ببروقه وأمطاره التي تخطف عمال التجديف ، ومن يعملون في صدرها.

ولا نكاد نلاحظ من قتامة ألوان الغيوم ، وتراكمها إلا ما ندر من ملامح الركاب المذعورين ، وعمالها وهم يتصايحون في رعبٍ من مرأى جبل صخري ، تقذفهم الأمواج إليه .

فيما نُطالع ربان السفينة واضعًا أصابعه في أذنيه الكبيرتين، وقد غطى عينيه بثوبه ، وامتدت إليه ذراع أحد مساعديه ، وجذعه منحن .

يقول الرواة:

لا أحد يعرف حين مدّ مساعد الربان يده إليه ، هل كان مساعدًا أم مصارعًا ؟

ورووا أيضًا أن صوتًا صرخ في وجه الربان سمعه الركاب كلهم : "من يقود السفينة يقودها للصخور في هذا البحر، والحقيقة صعبة.. هناك من لا يتعامل بمسؤولية .. ويفكرون في أنفسهم فقط".

وأكد كثرة من الرواة ذلك القول بزعمهم أن ربان السفينة أهمل، بل رفض إنقاذ من سقط من السفينة ، على الرغم من توافر الحبال ، وصراخ ذويهم.

وزعم راوٍ أن السفينة مغصوبة ، وأن ربانها قرصان ، ولذا فقد تنبأ له بنهاية كمصير (أوديسيوس) الذي حكم عليه إله البحر (بوسيدون) بعد حرب طروادة أن يبقى تائهًا بين الأمواج، ولا يصل إلى أرض أبدًا.

وقال آخر: إن روح فروسية (بوسيدون) التي حلت به ، عندما بجلوه كأب للخيول ، من أهم أسباب كراهية ربان السفينة له.

وأكد راوٍ أنه سمع بعض ركاب السفينة يقسمون بذهبهم وأرواحهم ، أنهم سيغادرون بعد النجاة ، ولن يسمحوا لأحد من أبنائهم ، ولا أحفادهم أن يركبها ثانية.

٣٦- أجراس وطبول:

سجادة عتيقة تناغمت ألوانها : الأبيض ، والأخضر، والأحمر، والأسود ، يقطعها خطان أزرقان يتباينان في درجة اللون وزهائه مع الألوان السابقة ، إذ يبدوان أكثر نصوعًا ،على أن مجموع الألوان لا يمنحها الظهور الكامل سرب الغربان الكبير الذي حط عليها ، وعلى الطبل مشدود الجلد الموضوع بجوار الباب ، وعلى رأس مطرقته ، وما جاورها من نبل .

يصوّب الغربان رؤوسهم إلى صدر المكان ، فيتجلى في حدقة أحدهم من جهة النظارة جثة هامدة على رأسها كوفية وعقال ، وفي حدقة غراب آخر يد طويلة ممسكة بخنجر مخضّب .

بقدمين ثابتتين قويتين ، يقف نسر على جذع في صدر المشهد ، وقد بسط جناحيه ؛ فتجلى طرفاه كفتي ميزان تعادلتا ، وخلفه نافذة ظهر فيها الأفق متسعًا تغمره أشجار الزيتون ، كما نُطالع امرأةً ترفع يديها إلى السماء ، ورجلًا يضع لبنة فوق أخرى ، وبجوار النافذة جرس تعلوه حمامة بيضاء.

يحدّ فضاء اللوحة جداران ؛ فعن يمين النسر جدار ضخم مرتفع ، تهدمت منه أجزاء كبيرة ، وعن يساره دخان كثيف تشكل في صورة جدار.

كما نستطيع رصد خطوط دقيقة في فضاء اللوحة تتمايز بين ما يتصل بالنسر، وما يتصل بالغربان ؛ فهي مستقيمة حين تقترب من موضع النسر، معقدة التعرجات عندما تقترب من الغربان.

يقول الرواة:

إن النسر قد حطّ عن سربه قاصدًا هذا الموضع ؛ كي تدق أجراس السلام، وتكف طبول الحرب.

ورووا كذلك أن وقفته بقدمين ثابتتين، وجناحين متوازنين ، جعل ظهوره حميدًا منيرًا كسيّد عظيم.

وروى آخرون أن ذكاء الغربان في متابعتهم للنسر، وكأنّه يتلو عليهم نشيد الحياة ، أسكت صوت التشاؤم وبدد من دخان الشك ؛ فحضر صوت العقل ، يردد مثال سليمان الحكيم : " الغش في قلب الذين يفكرون في الشر ؛ أما المبشّرون بالسلام ، فلهم الفرح ".

وزعم راوٍ أنه طالع المشهد بعينين جديدتين جدة الصباح؛ فصادف دخانًا كثيفًا ، ولم يسمع صدى لمثال سليمان الحكيم.

٣٧- حكيم الخميلة:

خميلة نعدّ منها عشرين شجرة من أشجار الزيتون المثمر بألوانه الزاهية : الأخضر، والأحمر، والأصفر، والبنفسجي ، تزدان هذه الأشجار بأخرى ربوض عتيقة ، وافرة الثمار والظلال، في وسط الخميلة انتصبت كأم ترعى بنيها من حولها، عن يمينها نخلة باسقة يزهو سعفها الأخضر كريمة الرطب.

يعلو الشجر سرب ناصع البياض من الحمام ، باسط أجنحته كأكف تمتد للمصافحة ؛ كأنما يعزفون لحنًا معًا.

ويحضر الماء ؛ ليحفّ الخميلة شرقًا ، وغربًا ، ومن إحدى زاويتي اللوحة ، يمكننا أن نعدّ شجرتين يسارًا، ومثلهما يمينًا ، سقطت بينهما ثمرتا زيتون ظهرتا كنقطتين .

يكدّر صفو الخميلة رفس حلوف لأضعف أشجارها بحوافره المشقوقة مدبرًا ، وقد يمّم وجهه شطر الجهة المقابلة للخميلة : أشجارها ، وحمائمها.

يقول الرواة:

لما أزهرت الراوبي ، طلع حكيم الخميلة ، وبحلاوة التمر في فيه ، سعى حتى يذوقه كل من حضر في الخميلة ، ومدّ يدًا، تعطي غصن الزيتون ، ويدًا تطلب بيتًا لصاحبه ، بينما ألقى حبات القمح ليحطّ عليها سرب الحمام الأبيض لا يعتريه خوف .

ودهش رواة كثر من صاحب آذان كبيرة ، لم ينفعها كبرها، صمّت عن حكمة الحكيم.

٣٨- سيدة المطر:

وجهها الجميل ذو البشرة القمحية يأخذ بصر المشاهد إليه، وسيمة ملامح العينين ، والأنف ، والشفتين ، والوجنتين ؛ فإذا دققنا النظر لم يخل وجهها من ندوبٍ ؛ كأنها آثار أيام ، ولعلّ هذه المفارقة العجيبة تتجلى في العينين ؛ فإذا نظرنا إليها تارة ؛ كأنما تبوح بألمٍ ، لكننا حين نعاود إليها النظر، كأنها تشدو سعادة ، وهذه حال شفتيها كذلك.

تمطرها السماء ، تغسل وجهها حبّات الماء ، كأنما استيقظت من سباتٍ طويل عميق.

تأخذ الرياح شعرها ، يسترسل معها في سبيلها من جوانب قبعتها ، وقد بدا متلبدًا شيئًا ما على الرغم من حيويته ، وطوله.

ترتدي فستانًا بهيًا شكّلته ألوانه : الأبيض ، والأخضر، والأحمر، والأسود، يغسله المطر مع وجهها ، ينزل من طرفه السفلي قطرات يتخللها التراب ، فبدا لونها داكنًا.

تنافس قبعتها الذهبية بهاء وجهها بأضلاعها الثمانية ، وبداخلها ثمانية أخرى ، تتوسطها دائرة في نسيج هندسي بديع.

تلتفت السيدة يمينًا إلى الشرق ؛ حيث تبدو شجرة زيتون نضيرة ، يجلو المطر أوراقها مع السيدة ، فيما بدت شجرة تين مجدبة على يسارها إلى الغرب.

يقول الرواة:

إن ثمة قوى خفية قد أجبرت السيدة على اتخاذ هذا الفستان بألوانه ، ومن قبله تلك القبعة البهية ، بل إن تلك القوى قد أنزلت المطر؛ لتغسل عن هذه السيدة ما غسل.

وزعم راوٍ أنه قد اقتنى اللوحة أحدهم ؛ فظل يعاني، ويشكو إلى أن ردّها إلى مصدرها الأول.

وأضاف أن عودة اللوحة إلى مصدرها الأول بعد أن اقتناها أحدهم ، وتكرار عودتها بعد تكرار اقتنائها ، تؤكد أن سيدة المطر سيؤول أمرها لنفسها بعد أن لم يكن كذلك.

٣٩- الزفاف:

نخلة باسقة ، متينة الجذع ، زاهية السعف ، كريمة الرطب ، ينطلقُ من ظلالها شاب ، تترجم سماته عن سمو وفتوة في ثياب عربية ، قد بسط ذراعيه يمينًا ويسارًا ، يحشد بها تلك الوجوه التي جمعت بشراتها ألوان الأرض من مشارقها إلى مغاربها ، تتشابك الكفوف ، وتتماثل الخطى للجمع الغفير ، ينظرون بعزيمة وتصميم جميعًا إلى الأمام.

يعلوهم سرب من الحمام الأبيض ، وقد صفّ يبهج في سماء المشهد، يأخذ سبيله قدمًا حيث طريق الموكب الذي يحتضن سيدة ، كأنما غسل المطر وجهها وفستانها ذا الألوان الأربعة : الأبيض، والأخضر، والأحمر، والأسود، وكذلك قبعتها الذهبية ذات الأضلاع الثمانية البديعة.

وكأن الموكب يزفّها إلى ذلك المقعد الذي يصنع عمق المشهد ، يقتسم موضعه مع مقعد آخر بجواره ، جلست عليه " المرأة العجوز السوداء نحيلة الوجه "، بعينين حمراوين، واضعةً يدها على المقعد بجوارها ، فيما بدت يدها الثانية طويلة جدًا بصورةٍ لا يمكن أن تُنسى.

فيما نلاحظ ثلة لم تنضم للموكب ، تتباين سمات وجوههم بين دهشة ، وغضب ، وسعادة ، وتحفّز، وكان أقربهم إلى المرأة العجوز السوداء ، شابة زرقاء العينين ، متوجة ، تحمل شعلة منطفئة ، وكتابًا مقطوعًا ، وقد سقط عنها رداؤها ؛ فلم يستر منها شيئًا.

يقول الرواة:

إن الشابة زرقاء العينين ، المتوّجة ، تتجلى نهارًا سنية التاج ، بهية الرداء ، بشعلتها ، وكتابها ، لا يشوبها شيء ؛ حتى إذا أتى الليل ، أطفأت الشعلة ، ومزّقت الكتاب ، وخلعت الرداء، تعربد كما تشاء ، غير أن هذه المرة رأوها نهارًا على حقيقتها.

هذا وقد اختلف الرواة في تعداد الموكب ، فحقق أحدهم أنهم ناهزوا مئة ونصف مئة ، وأن لكل ثلاثة في الموكب واحدًا لم ينضم إليه ممن تابعوا الحدث على جانب الطريق ، أو ناصبوا الموكب العداء.

وقد رووا أن كلمتي : " نعمة ، ونقمة " تحدثت عنهما السيدة الطويلة بصورةٍ لا يمكن أن تنسى ، إلا أن أحدًا لم يرها تصون نعمة قط أو تشكرها ، بل أطلقت حلوفها يعيث فسادًا.

وزعم راوٍ أن سعادة المرأة التي لا يمكن أن تنسى بسلوك الحلوف الغاشم ، يبعث على الدهشة ، بل السخرية ، ذلك أن حكيمًا من قومها أسرّ إليها أنه لا ضامن لبقاء مقعدها الذي تجلس عليه إلا مقعد جارتها ، وأن تقبل بالحمام يرفرف .

٤٠- حيث تغيب الشمس :

الشمس تؤذن بنهاية يوم ، لم يتبقَ منها على صفحة البحر إلا قوس رفيع ، تتجاور في مرآها مع مجموعة سفن ترسوا على الشاطئ ، قد سبقت إحداها مبحرةً تجاه الشمس ، تحمل علمًا ينهض فيه أسدٌ أحمر على قائميه الخلفيين ، فيما يمد قائميه الأماميين أمامه بمخالب حادة ، ونظرة جارحة ، ولسان أفعى يعلوه تاج ذهبي.

تتناثر مجموعات من الجنود ، تكسوهم أردية رُسم عليها صلب حمر، مجردين من السلاح والخوذ ، تتثاقل خطواتهم ، وهم يحملون أمتعة متنوعة إلى السفن ، وقد سقط ثلاثة منهم بأحمالهم دون وضوح ملامح وجوههم؛ هل سقطوا حزنًا أم إعياءً ؟

تشكّل يمين المنظر أسوار عالية منيعة ، تهدمت أجزاء منها ، كما تبدو عليها آثار نار، وعلى البرج الظاهر في اللوحة سارية لرايةٍ ممزقة ، وسارية أخرى ، قد رُفعت تحمل هلالًا، وعلى جنباته جنود يراقبون المشهد بلباسِ الحرب والسلاح.

يقول الرواة:

بعد سنين طوال، حان مولد السؤال المهم : هل استطاع العنف المفرط تقتيلًا ، وتدميرًا ضد أصحاب الأرض أن يمنح المحتلّ البقاء ؟ وهل استطاعت أسوارهم المنيعة أن تحميهم، وإن مكثوا قرنين من الزمان تُغذيهم إقطاعيات الفرنجة بالرجال ، والمال ، والسلاح ؟

وأضافوا أن ما ادعاه الأوروبيون من قرب زوال الحياة بعد ألفية وقرن على نهاية عهد المسيح ، وإنقاذ بيت المقدس ، كذّبته صيحة كبيرهم : " أورشليم أرض لا نظير لها في ثمارها"، كما كذّبته (مذابح راينلاند) واستباحتهم للكنائس ، والرهبان، وهم في طريقهم لمحاربة الشرق.

وتساءل راوٍ: أليس ربّ هؤلاء خبزهم ؟!

كما تواتر عن الرواة ما ألحقه المصريون ، وملكهم الأشرف (خليل بن قلاوون) بهؤلاء المحتلين هزيمةً ، وإجلاء ، وطردًا إلى بلادهم حيثُ تغيب الشمس.

المُحتَوَيَاتْ

إهداء ٥
حديث الرّحّالة ٧
عن مجلس الترجمان ٨
دوري في الكتاب ١١
١- الملعون ١٤
٢- عين الكذب ١٦
٣- طرد الصيارفة ١٨
٤- قاطع لحم البشر ٢٠
٥- البجعة السوداء ٢٢
٦- الصيحة ٢٤
٧- سبت الساحرات ٢٦
٨- ولا تعف عنهم ٢٨
٩- البساط المقدس ٣٠
١٠- الزجاج المكسور، والعظم المكسور ٣٢
١١- بلدة الموز ٣٤
١٢- أجساد لا بطون لها ٣٦

١٣- نقش على قائمة سوداء ٣٨
١٤- لعنة الكاتب المصري ٤٠
١٥- الدّوبل ٤٢
١٦- خيانة ٤٤
١٧- فن العمارة ٤٦
١٨- الخطة ٤٨
١٩- انتظروا ألف حورس ٥٠
٢٠- براءة..... ٥٢
٢١- تحطيب ٥٤
٢٢- حقيقة النور ٥٦
٢٣- الدرس الكبير ٥٨
٢٤- كلب الجحيم ٦٠
٢٥- ضد الطُّعمة والأمن..... ٦٢
٢٦- فرية الدم ٦٤
٢٧- البقر الأحمر ٦٦
٢٨- حمار المسيا ٦٨
٢٩- أبناء الفولجا ٧٠
٣٠. المستأسد ٧٢

٣١ - اكتشاف حتحور ٧٤
٣٢- صياد المجانق ٧٦
٣٣- الآلهة السكارى ٧٨
٣٤- الجاثوم ٨٠
٣٥- القراصنة ٨٢
٣٦- أجراس وطبول ٨٤
٣٧- حكيم الخميلة ٨٦
٣٨- سيدة المطر ٨٨
٣٩- الزفاف ٩٠
٤٠- حيث تغيب الشمس ٩٢